



فينومينولوجيا الدين

عند جان لوك ماريون

د. صابرين زغلول السيد شعبان

أستاذ فلسفة الدين المساعد

كلية البنات - جامعة عين شمس

DOI: 10.21608/qarts.2024.301242.2000

مجلة كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي - المجلد (٣٣) العدد (٦٤) يوليو ٢٠٢٤

ISSN: 1110-614X الترخيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة

ISSN: 1110-709X الترخيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية

<https://qarts.journals.ekb.eg>

موقع المجلة الإلكتروني:

فينومينولوجيا الدين عند جان لوك ماريون

الملخص:

يتناول هذا البحث فينومينولوجيا الدين في فلسفة جان-لوك ماريون، مستكشفاً مفاهيمه الأساسية كالعطاء المحض والظاهرة المشبعة والأيقونة. يحلل البحث كيفية تجاوز ماريون للميتافيزيقا التقليدية وإعادة تأسيسه للعلاقة بين الفلسفة والدين. كما يناقش إسهامات ماريون في فهم التجربة الدينية والتحديات التي تواجه مشروع الفلسفي، مبرزاً أهميته في سياق الفكر الفلسفي والديني المعاصر.

الكلمات المفتاحية: جان لوك ماريون، فينومينولوجيا، الدين، العطاء، الظاهرة المشبعة، الأيقونة، الميتافيزيقا.

مقدمة:

تُعد الفينومينولوجيا، منذ ظهورها في مطلع القرن العشرين، من أهم التيارات الفلسفية التي أحدثت ثورة منهجية عميقة في دراسة الظواهر الإنسانية عامة، والظاهرة الدينية بشكل خاص. فبفضل جهود مؤسسها إدموند هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨)، تمكنت الفينومينولوجيا من تجاوز الثنائيات الميتافيزيقية التقليدية بين الذات والموضوع، والشكل والمضمون، والجوهر والمظهر، والانطلاق من استكشاف المعطى بوصفه "ظاهرة" تحمل معناها في ذاتها وتكشف عن بنيتها الخاصة.

وقد كان لهذا التحول الجذري انعكاسات بالغة الأهمية على حقل فلسفة الدين، حيث أتاح إمكانية جديدة لمقاربة الخبرة الدينية في غناها الظاهراتي الخاص، بعيداً عن الأحكام المسبقة والتفسيرات الاختزالية. فمن خلال العودة إلى "الأشياء ذاتها" كما تتعطى للوعي، والتركيز على "المعيش" الديني كما يخبره المؤمن ويعانيه، سمحت الفينومينولوجيا بتسليط الضوء على أصالة التجربة الإيمانية ومركزيتها، وعلى ما تتطوي عليه من معانٍ ودلالات وجودية لا تقبل الاختزال في أي مقولات خارجية عنها.

لكن الفضل الأكبر في تعميق البحث الفينومينولوجي للظاهرة الدينية يعود بلا منازع للفيلسوف الألماني مارتن هايدجر (١٨٨٩-١٩٧٦)، الذي أخذ على عاتقه مهمة تفكيك الميتافيزيقا الغربية التقليدية وكشف أسس نظرتها "الأنطوثيولوجية" للوجود والكينونة. فمن خلال تحليلاته الوجودية الرائدة، أظهر هايدجر كيف أن سؤال "الوجود ظل هو المسكوت عنه في تاريخ الفلسفة برمته، وكيف أن إعادة طرحه بطريقة جذرية هي شرط أساس لكل تفكير حر وأصيل.

وبذلك، مهّد هايدجر الطريق لمراجعة شاملة لكل التصورات الميتافيزيقية الموروثة حول الذات والعالم والله، وأسس لمقاربة فينومينولوجية جديدة تنطلق من "انكشاف" الوجود ذاته كحدث يسبق كل تأسيس ذاتوي أو موضوعي. وهي المقاربة التي ستجد صداها العميق لدى جيل من الفينومينولوجيين المعاصرين، الذين سيتخذون من تحليلات هايدجر الوجودية منطلقاً لمساءلة الأسس الأنطولوجية للمتعالى الديني ولتصوراتنا التقليدية عن المقدس والإيمان.

ومن أبرز هؤلاء المفكرين دون شك، نجد الفيلسوف الفرنسي جان لوك ماريون (١٩٤٦ -) * الذي كرس مشروعه الفكري بأكمله لمحاولة بلورة رؤية فينومينولوجية متكاملة للظاهرة الدينية، من خلال نظريته في "فينومينولوجيا العطاء" (phenomenology of givenness) والتي تقوم على مفاهيم أساس كـ"التشبع الحدسي" (saturated intuition) و"العطاء اللامشروط" (unconditional giving).

فبالنسبة لماريون، لا يمكن التفكير في المعطى الديني بشكل أصيل إلا انطلاقاً من لحظة "العطاء المطلق" (absolute givenness) التي تؤسس كل تجلٍ للمقدس وتمنحه معناه. وهي لحظة "تجاوز" جذري تتميز بها الظاهرة الدينية من حيث كونها دائماً "زائدة"

* جان لوك ماريون (Jean-Luc Marion) (١٩٤٦ -) هو فيلسوف فرنسي معاصر وأحد أبرز ممثلي الفينومينولوجيا الفرنسية المعاصرة. اشتهر بأعماله في مجال الفينومينولوجيا والفلسفة الدينية، وخاصة نظريته عن "الظاهرة المشبعة" و"العطاء". عمل ماريون أستاذاً للفلسفة في جامعة باريس- السوربون وجامعة شيكاغو، وهو عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ عام ٢٠٠٨. من أهم مؤلفاته "الله بدون الوجود" (١٩٩١) و"العطاء" (٢٠٠٢).

تتميز فلسفته بمحاولة تجاوز الميتافيزيقا التقليدية وإعادة التفكير في مفاهيم مثل الله والحب والذات من منظور فينومينولوجي جديد.

و"فائضة" عن كل الشروط القبلية للإدراك والمعرفة، وغير قابلة للاختزال في أي بنى ذاتوية أو موضوعية مسبقة.

وهذا يعني، بحسب ماريون، ضرورة "تعليق" كل المسلمات الأنطولوجية والغنوصية حول وجود الله وماهيته، والتركيز عوضاً عن ذلك على "حدث" تجليه الفعلي كما يُعطى للوعي والخبرة في كل آن. فالمطلق، في نظره، لا يمكن الإمساك به إلا في لحظة "العطاء" ذاتها التي تتخطى كل تحديد مفهومي أو تمثلي، وتدعو الذات في المقابل لاستقبال ما يفوق طاقتها وقدرتها على الاستيعاب.

وبهذا المعنى، فإن العلاقة الحقة بالمقدس بالنسبة لماريون ليست علاقة معرفية أو موضوعية، بل هي قبل كل شيء علاقة "تلقّي" و"شهادة" لما يتجاوزنا ويأسرنا بغناه اللامتناهي. إنها علاقة لا تسعى للحيازة أو السيطرة، بل تنفتح باستمرار على "المجهول" وترحب بكل ما يتعذر توقعه أو التحكم به. وهو ما يجعل من كل تجربة دينية أصيلة، في نهاية المطاف، "مغامرة" وجودية مفتوحة على المعنى بلا حدود.

وإذا كان ماريون قد استلهم الكثير في هذا التصور من مباحث هوسرل حول "القصدية" والحدس، ومن تحليلات هايدجر لجذلية الكشف والحجب في ظهور الوجود، فإنه سيتخذ مع ذلك مسافة نقدية من كليهما لصالح ما يسميه "فائض العطفية" (excess of givenness). فبالنسبة إليه، حتى فكرة "القصدية المتعالية" عند هوسرل تظل أسيرة لشروط الوعي المؤسّس، فيما مقولة "أنطولوجيا الوجود" الهايدجرية لا تكفي وحدها لاستيعاب تعالي المطلق الديني الذي يتجاوز كل أفق للكشف أو التحقق.

وهو ما سيدفعه للقول بضرورة توسيع نطاق الفينومينولوجيا، بمعناها الكلاسيكي، نحو آفاق جديدة تتجاوز مجرد وصف البنى القصدية للظواهر. هذا التوسع يسمح بالانفتاح

على ما يتعذر استنفاده ظاهراتياً، ويجعل من "اللامرئي" و"اللامنتوق" شرطاً إيجابياً لكل معنى ممكن. فالمقدس، كما يشدد ماريون مراراً، لا يمكن الحديث عنه بشكل موضوعي أو نهائي، وإنما يستدعي منا دوماً لغة "التلميح" و"الإشارة" التي تحافظ على سره وكنهه العصي على الإدراك.

وبناء على هذه الرؤية، سيعيد ماريون النظر بشكل جذري في الكثير من المفاهيم والتصورات الكلاسيكية في فلسفة الدين، كالعلاقة بين الإيمان والعقل، أو بين الطبيعي والفائق للطبيعة، أو بين النعمة والحرية. كما سيقترح مقاربات جديدة ومثيرة للعديد من "تجليات" المقدس في حياتنا، ك"الأيقونة" بوصفها تحدياً للنظرة التمثيلية، و"الوجه" كتعبير عن تعالي الغير الأخلاقي المطلق.

إشكالية البحث:

كيف تعيد فينومينولوجيا الدين عند جان-لوك ماريون تشكيل فهمنا للعلاقة بين الفلسفة والدين، وما هي تداعيات هذه المقاربة على التفكير الفلسفي المعاصر في المقدس والتجربة الدينية؟

ويتبع هذا الاشكال الرئيس عدة أسئلة:

١. ما المفاهيم الأساسية التي يقدمها ماريون في فينومينولوجيا الدين، وكيف تتحدى هذه المفاهيم الأطر التقليدية للميتافيزيقا الغربية؟

٢. كيف يعيد مفهوم "العطاء المحض" عند ماريون تعريف العلاقة بين المتناهي واللامتناهي، وما هي انعكاسات ذلك على فهمنا للتجربة الدينية؟

٣. ما هو دور مفهوم "الظاهرة المشبعة" في تحليل ماريون للتجلي الديني، وكيف يغير هذا المفهوم من فهمنا لحدود المعرفة البشرية في مواجهة المقدس؟

٤. كيف يعيد ماريون تفسير مفهوم "الأيقونة" في سياق فينومينولوجيا الدين، وما هي آثار هذا التفسير على فهمنا للعلاقة بين المرئي واللامرئي في التجربة الدينية؟
٥. ما هي التحديات الرئيسية التي تواجه مشروع ماريون الفينومينولوجي، وكيف يمكن التعامل مع هذه التحديات في سياق الفكر الفلسفي والديني المعاصر؟
٦. كيف يمكن لمقاربة ماريون أن تسهم في تجديد الحوار بين الفلسفة والدين في مواجهة تحديات العصر الحالي، وما هي آفاق هذا الحوار في ضوء فينومينولوجيا الدين التي يقترحها؟
- ٧- كيف يمكن التوفيق بين القول باللاتناهي المطلق للتجلي الديني، وبين منهجية الوصف الظاهراتي الصارم التي يفترض أن تنقيد بحدود الخبرة الممكنة؟
- أسئلة عميقة ومعقدة بلا شك، سيكرس هذا البحث جهده لتحليل المرتكزات الأساسية لفينومينولوجيا الدين عند جون لوك ماريون، مع محاولة تتبع تطورها المفهومي وتشعباتها المنهجية. وسيتم ذلك من خلال اعتماد المنهج التحليلي النقدي المقارن، الذي يستقصي الروابط الجوهرية بين الطروحات الماريونية الرئيسية وخلفياتها الفلسفية والمعرفية، ويبرز في الوقت ذاته نقاط التوتر والانقطاع التي تميز مشروعه الفكري وتمنحه خصوصيته.

خطة البحث

يتكون هذا البحث من ثلاثة مباحث كل مبحث يتكون من ثلاثة مطالب على

النحو التالي:

المبحث الأول: الأسس الفلسفية لفينومينولوجيا الدين عند جان لوك ماريون

المطلب الأول: تأثير إدموند هوسرل وتطوير مفهوم القصدية

المطلب الثاني: مارتن هايدجر وفينومينولوجيا الوجود

المطلب الثالث: فينومينولوجيا العطية والتجلي

المبحث الثاني: مفهوم العطية وتجليات المقدس في فينومينولوجيا الدين عند ماريون

المطلب الأول: العطية المطلقة والتجلي غير المشروط

المطلب الثاني: التشبع والتجلي: ظهور المقدس في العالم

المطلب الثالث: اللامرئي والمتعالي: تجاوز حدود الظاهرانية

المبحث الثالث: الأيقونة والوجه: تجليات المقدس وتحدي الفهم الفينومينولوجي عند

ماريون

المطلب الأول: فينومينولوجيا الأيقونة والتجلي الجمالي

المطلب الثاني: فينومينولوجيا الوجه والتجلي الأخلاقي

المطلب الثالث: حدود الفينومينولوجيا وإمكانات التفكير الديني عند ماريون

المبحث الأول: الأسس الفلسفية للفينومينولوجيا الدين عند جان لوك

ماريون

المطلب الأول: تأثير إدموند هوسرل وتطوير مفهوم القصدية

يعد إدموند هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨) الأب المؤسس للفينومينولوجيا، فقد سعى هوسرل لتأسيس الفلسفة كعلم صارم، داعياً إلى العودة إلى "الأشياء ذاتها" والانطلاق من "المعطيات الأولية للوعي" لبناء المعرفة اليقينية. يقول هوسرل: "يجب علينا العودة إلى الأشياء ذاتها. نريد الرجوع إلى عالم الخبرة في غناه وتعدده الكامل، العالم الذي يظهر أمام وعينا الحي والملمس".^١ هذه الدعوة للعودة إلى الأشياء ذاتها شكلت نقطة انطلاق أساسية لماريون في تطوير فهمه الخاص للظاهرة الدينية.

في قلب المنهج الفينومينولوجي الهوسرلي يقع مفهوم "القصدية" (Intentionality)، الذي يعني أن الوعي في طبيعته الأساسية هو دائماً "وعي بشيء ما". يقول هوسرل: "كل وعي هو 'وعي بشيء ما'. هذه هي الخاصية الأساسية للوعي، التي نسميها القصدية"^٢ وفقاً لهذا المفهوم، فإن كل فعل من أفعال الوعي هو في حقيقته فعل "قصدي"، يحيل دائماً إلى "متعلق" أو "مقصود" يشكل بؤرة اهتمامه ومحور معناه.^٣

¹ Husserl, Edmund. Ideas: General Introduction to Pure Phenomenology. Translated by W. R. Boyce Gibson. London: Routledge, 2012, p. 35.

² Husserl, Edmund. Cartesian Meditations: An Introduction to Phenomenology. Translated by Dorion Cairns. The Hague: Martinus Nijhoff, 1960, p. 33.

³ Husserl, Edmund. Logical Investigations, Volume 2. Translated by J. N. Findlay. London: Routledge, 2001, p. 95 .

هذا يعني أن الظواهر، وفق التحليل الهوسرلي، لا تتعطي لنا إلا من خلال الأفعال القصدية للوعي التي تمنحها معناها وتحدد طريقة ظهورها. فالقصدية هي بمثابة الجسر الذي يصل الوعي بالعالم، والهيكل الأساسي الذي ينتظم وفقه كل إدراك أو معرفة بالموضوعات.⁴ يؤكد هوسرل على أن القصدية ليست مجرد علاقة خارجية بين الوعي وموضوعاته، بل هي الطبيعة الجوهرية للوعي ذاته.⁵

انطلاقاً من هذا الأساس، يعكف ماريون على دراسة أعمال هوسرل بتأنٍ ودقة، مستلهماً منها المبادئ المنهجية الأساسية. لكنه لن يكتفي باستعادة المفهوم الهوسرلي الكلاسيكي للقصدية، بل سيسعى لتطويره وإعادة صياغته بما يتلاءم مع متطلبات مشروع الأعم لتأسيس فهم فينومينولوجي للدين.⁶

يرى ماريون أن التصور الهوسرلي للقصدية، رغم أهميته الكبيرة، ينطوي على قصور جوهري في فهم الظاهرة الدينية. فهو يرى أن هوسرل، بحكم تركيزه المنهجي على بنية الوعي واشتغاله، يميل غالباً لاختزال الظاهرة في صورتها المتمثلة داخل الوعي، بدلاً من التركيز على غناها الخاص كما تتعطي بذاتها وانطلاقاً من ذاتها. يقول ماريون: "إن

⁴ Husserl, Edmund. The Idea of Phenomenology. Translated by William P. Alston and George Nakhnikian. The Hague: Martinus Nijhoff, 1964, p. 43.

⁵ Husserl, Edmund. Ideas Pertaining to a Pure Phenomenology and to a Phenomenological Philosophy: First Book. Translated by F. Kersten. The Hague: Martinus Nijhoff, 1982, p. 199.

⁶ Marion, Jean-Luc. Reduction and Givenness: Investigations of Husserl, Heidegger, and Phenomenology. Translated by Thomas A. Carlson. Evanston: Northwestern University Press, 1998, p. 203.

القصدية الهوسرلية، في سعيها لتأسيس المعنى انطلاقاً من فعالية الوعي، تخاطر باستلاب الظاهرة من غناها الأصيل وتقليصها إلى مجرد موضوع للتمثل الذاتي".^٧

هذا النقد ينطلق من فهم ماريون للظاهرة الدينية كـ"عطية مطلقة" (absolute givenness) تتجاوز كل تحديد وتسبق كل تمثّل ذاتي. فبينما تفترض القصدية الهوسرلية نوعاً من التناظر بين فعل الوعي وموضوعه، يرى ماريون أن "الظاهرة الدينية تتميز بفائض جذري يتخطى كل استيعاب ممكن من قبل الوعي".^٨

وهكذا، فإن ماريون يدعو إلى "تخليص القصدية من القيود المثالية" التي فرضها عليها هوسرل، وذلك من خلال إعادة التأكيد على "أولوية المعطى بما هو معطى" (the primacy of the given as given)، أي على تقدم الظواهر في عطائها الأصيل على كل فعالية ذاتية".^٩

هذا التحول في فهم القصدية يقود ماريون إلى طرح سؤال جديد: بدلاً من التساؤل عن "كيف يدرك الوعي الموضوع؟"، يصبح السؤال الجوهرى هو "كيف يهب الموضوع ذاته للوعي؟" وكيف يتجلى بما هو كذلك قبل أي حكم أو تأويل مسبق؟^{١٠}

⁷ Marion, Jean-Luc. Being Given: Toward a Phenomenology of Givenness. Translated by Jeffrey L. Kosky. Stanford: Stanford University Press, 2002, p. 189.

⁸ Marion, Jean-Luc. In Excess: Studies of Saturated Phenomena. Translated by Robyn Horner and Vincent Berraud. New York: Fordham University Press . 2002. p. 42

⁹ Marion, Jean-Luc. The Visible and the Revealed. Translated by Christina M. Gschwandtner. New York: Fordham University Press, 2008, p. 24.

¹⁰ Marion, Jean-Luc. God Without Being: Hors-Texte. Translated by Thomas A. Carlson. Chicago: University of Chicago Press, 1991, p. 75.

وبهذا التحول يصبح جوهر القصدية، كما يؤكد ماريون، ليس "توجه الوعي نحو العالم" بل "انفتاحه على ما يتجاوزه"، أي فيض العطاء الذي يتقدم على كل إدراك ويؤسس لكل معنى ممكن".¹¹ هذا الفهم الجديد للقصدية يفتح، بحسب ماريون، إمكانيات غير مسبوقه لفهم الظاهرة الدينية في غناها وتعاليلها. فبدلاً من اختزال المقدس في مجرد "موضوع" للوعي أو "متعلق" للقصد، يصبح بالإمكان فهمه كـ"عطاء" يسبق كل إدراك ويؤسس لكل معنى".¹²

لكن هذا التوسيع لمفهوم القصدية يثير تساؤلات فلسفية عميقة: هل يمكن حقاً الحديث عن "قصدية" تتجاوز حدود الوعي؟ ألا يؤدي هذا إلى تمييع المفهوم وإفقاذه قوته التحليلية الأصلية؟ وكيف يمكن الحديث عن "معطى" يسبق كل فعالية ذاتية؟¹³

يجيب ماريون على هذه الإشكاليات من خلال تطوير مفاهيم جديدة مثل "الظاهرة المشبعة" (saturated phenomenon) و"الأيقونة" (icon)، والتي تهدف إلى توسيع أفق الفينومينولوجيا لتستوعب ما يتجاوز حدود الإدراك والتمثل التقليديين.¹⁴

¹¹ Marion, Jean-Luc. The Erotic Phenomenon. Translated by Stephen E. Lewis. Chicago: University of Chicago Press, 2007, p. 18.

¹² Marion, Jean-Luc. Givenness and Revelation. Translated by Stephen E. Lewis. Oxford: Oxford University Press, 2016, p. 52.

¹³ Marion, Jean-Luc. The Rigor of Things: Conversations with Dan Arbib. Translated by Christina M. Gschwandtner. New York: Fordham University Press, 2017, p. 87.

¹⁴ Marion, Jean-Luc. "The Saturated Phenomenon." In Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate. New York: Fordham University Press, 2000, p. 176.

إن مشروع ماريون في تطوير مفهوم القصدية وتوسيعه ليشمل الظاهرة الدينية يمثل محاولة جريئة لتجاوز حدود الفينومينولوجيا الكلاسيكية. فهو يسعى لتحرير التجربة الدينية من قيود الوعي الذاتي والأطر الأنطولوجية الضيقة، ليفتح المجال أمام فهم أكثر ثراءً وعمقاً للتجلي المقدس.^{١٥}

هذا الانقلاب في فهم القصدية له تداعيات عميقة على فهم الظاهرة الدينية. فبينما تميل الفينومينولوجيا الهوسرلية إلى فهم التجربة الدينية ضمن إطار الوعي القصدية، يسعى ماريون إلى تحرير المقدس من هذه القيود، ليفهمه كحدث يتجاوز كل توقع وكل فهم مسبق.^{١٦}

لكن هذا الموقف يثير إشكالات معرفية وأنطولوجية عميقة. فكيف يمكن الحديث عن "عطاء" يسبق كل وعي وكل إدراك؟ وما هي طبيعة هذا "المعطى" الذي يتجاوز كل قصدية؟^{١٧}

يجيب ماريون على هذه الأسئلة من خلال تطوير مفهوم "الظاهرة المشبعة" (saturated phenomenon). هذا المفهوم يمثل محاولة لتجاوز الثنائية التقليدية بين الذات والموضوع، وبين الوعي والعالم. فالظاهرة المشبعة، في تصور ماريون، ليست

¹⁵ Marion, Jean-Luc. Negative Certainties. Translated by Stephen E. Lewis. Chicago: University of Chicago Press, 2015, p. 105.

¹⁶ Marion, Jean-Luc. The Idol and Distance: Five Studies. Translated by Thomas A. Carlson. New York: Fordham University Press, 2001, p. 139.

¹⁷ Marion, Jean-Luc. Prolegomena to Charity. Translated by Stephen E. Lewis. New York: Fordham University Press, 2002, p. 81.

مجرد موضوع للوعي، ولا هي مجرد إسقاط ذاتي، بل هي حدث يتجاوز هذا التقسيم الثنائي ويؤسس لعلاقة جديدة بين الإنسان والعالم".¹⁸

لكن هذا الفهم الجديد للقصدية والظاهرة لا يخلو من انتقادات. فقد اعتبر بعض الفلاسفة أن ماريون، في سعيه لتجاوز حدود الفينومينولوجيا الهوسرلية، قد يقع في نوع من اللاهوت السلبي المفرط الذي يصعب معه أي حديث إيجابي عن المقدس".¹⁹

في المقابل، يرى آخرون أن مشروع ماريون يمثل تجديداً ضرورياً للفكر الفلسفي واللاهوتي، خاصة في سياق التحديات المعرفية والوجودية التي يطرحها العصر الحديث. فهو يقدم إطاراً فلسفياً قادراً على استيعاب غنى التجربة الدينية دون اختزالها في أطر ضيقة، ويفتح آفاقاً جديدة للتفكير في العلاقة بين الإنسان والمقدس".²⁰

في النهاية، يمكن القول إن مشروع ماريون في تطوير مفهوم القصدية يمثل محاولة جريئة لتجاوز حدود الفكر الفلسفي التقليدي. فهو يسعى إلى فتح آفاق جديدة لفهم الظاهرة الدينية، متجاوزاً الأطر المفاهيمية الضيقة التي فرضتها الفلسفة الحديثة. لكن هذا المشروع، رغم أهميته وعمقه، يظل محل نقاش وجدل فلسفي. فهو يثير أسئلة جوهرية حول طبيعة المعرفة والوجود، وحول حدود الفهم البشري وإمكاناته. وهي أسئلة تظل مفتوحة، تدعونا للتفكير في حدود الفهم الفلسفي للظاهرة الدينية وإمكانات تجاوزها.

¹⁸ Janicaud, Dominique. Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate. New York: Fordham University Press, 2000, p. 68.

¹⁹ Janicaud, Dominique. Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate. New York: Fordham University Press, 2000, p. 68

²⁰ Mackinlay, Shane. Interpreting Excess: Jean-Luc Marion, Saturated Phenomena, and Hermeneutics. New York: Fordham University Press, 2010, p. 124.

المطلب الثاني: مارتن هايدجر وفينومينولوجيا الوجود

إذا كان إدموند هوسرل قد شكّل المنبع الرئيس الذي استقى منه جان لوك ماريون مبادئ المنهج الفينومينولوجي وتقنياته، فإن مارتن سيمثل بلا منازع المؤثر الحاسم الذي سيدفعه لتطوير هذا المنهج صوب آفاق جديدة، أكثر انسجاماً مع خصوصية تناول الظاهرة الدينية ومتطلباته. ذلك أن الطعن الهايدجري الصريح في التمركز الذاتي للفلسفة الحديثة، وسعيه الحثيث لتخليص الفينومينولوجيا من بقايا النزعة المثالية الكامنة في صلبها، سيفتحان الأفق واسعاً أمام إمكانية بلورة مقارنة ظاهراتية للمعطى الديني لا ترهن غناه المطلق بتمثلات الوعي المتناهي أو تختزله في ماهية جوهرانية ثابتة.

وتتجلى أولى بوادر هذا التأثير جلياً في نقد ماريون المبكر لتصور هوسرل للقصدية، والذي سيتخذ منحىً أكثر راديكالية مع تعمقه في قراءة نصوص هايدجر الرئيسية. ففي كتابه الهام "الله بدون الوجود" (God Without Being)، والذي يحمل الكثير من أصداء هايدجر، يشدد ماريون على أن مقارنة الظاهرة الدينية "لا يمكن أن تنطلق من الذات العارفة وتمثلاتها القبلية، كما افترض هوسرل، بل يتعين أن تنبع من انفتاح أصيل على حدث التجلي المتعالي، الذي يسبق دوماً الوعي ويتيح له في الأساس فرصة التشكل"²¹. وهو الانفتاح الذي طالما أكد عليه هايدجر، لا سيما في محاضراته المتأخرة، حين دعا إلى الإصغاء لـ"نداء الوجود" واستقبال "انكشافه" المتقدم على كل فهم أو تأويل ذاتي.

لكن هايدجر، كما نعلم، لم يكن راضياً تماماً عن المصطلح الهوسرلي "القصدية"، معتبراً إياه لصيقاً أكثر مما ينبغي بالمعجم الإبستمولوجي الكلاسيكي وبثنائية الذات

²¹ Marion, Jean-Luc, God Without Being: p., 61

والموضوع التي يسعى لتجاوزها. لذا فضّل استبداله بمفهوم "الانفتاح" أو "الانكشاف" الذي يحيل، في نظره، على "الطابع القَبلي والمؤسس للعلاقة بين الكينونة والوجود الإنساني (Dasein)"، بمعزل عن كل حديث عن وعي مقصد يواجه موضوعاً مستقلاً عنه " ٢٢. فالأمر يتعلق إذًا، لا بنشاط ذاتي خالص، بل بحديث أنطولوجي كلي ينتمي لصميم اشتغال الوجود ذاته وانبثاقه في تجربتنا الوجودية الخاصة.

وسيكون لهذا التحول دلالة بالغة في مسار تطوير ماريون لمشروعه الفكري، إذ سيتيح له إمكانية إعادة طرح السؤال عن "المعنى" و"الحقيقة" خارج الإطار التأسيسي للذاتية الترنسندنتالية، وضمن أفق أوسع يستوعب ما في المعطى ذاته من فيض وغنى لا ينضب. يقول في هذا الصدد: "ما يستوقفني في التحليل الهايدجري للانكشاف، هو أنه يسمح بالتفكير في الظاهرة انطلاقاً من حركة العطاء التي تؤسسها وتهبها أصلاً للوعي، في أولوية مطلقة على كل فعالية قصدية. وهو ما سيفتح آفاقاً رحبة لاحقاً لمقاربة فينومينولوجية للتجلي الإلهي، لا تحيله ببساطة لبنى الذهن المتعالي، بل تنصت لما فيه من تعالٍ مطلق يتخطى حدود الإدراك الممكن" ٢٣

بيد أن انبهار ماريون بمبدأ الانكشاف الهايدجري، لا يعني بأي حال تبنيه الكامل للرؤية الأنطولوجية الأشمل التي ينبثق عنها. ففي حين سيحتفظ هايدجر على الدوام بمركزية مقولة "الوجود"، وإن بمعناها المتميز عن التصور الكلاسيكي للماهية الثابتة، فسيبقى ماريون لتخطيها برمتها صوب فكرة "العطاء المحض" الذي يسبق في نظره كل تحديد وجودي. ولهذا السبب، سيعيب على هايدجر "عدم ذهابه بعيداً بما يكفي في

²² Martin Heidegger, *Being and Time*, trans. John Macquarrie and Edward Robinson (New York: Harper & Row, 1962), 171.

²³ Marion, Jean-Luc, *The Visible and the Revealed*, p. 18.

القطيعة مع الميتافيزيقا التقليدية"، بحكم نزوعه لإعادة تأسيس الأنطولوجيا على قاعدة "نسيان الوجود" عوض تجاوزها كلياً لصالح "قائض العطاء الذي يتقدم على كل وجود"^{٢٤}.

وهنا تحديداً ستتجلى الخصوصية المنهجية لمشروع ماريون، من حيث كونه محاولة لدفع المبادئ الفينومينولوجية لهايدجر إلى أقصى حدودها، وصولاً إلى القول بـ"أولوية العطاء على الكينونة" كشرط لكل تفكير أصيل في المقدس والمتعالي. وهو الشرط الذي سيدفعه للحديث عن "الله بدون وجود"، أي عن خالق متعالٍ على الوجود ذاته ولا يمكن بأي حال اختزاله في كائن من الكائنات أو في موجود بين الموجودات، مهما علا شأنه وتميز عن سواه: "قاله، في حقيقته العميقة، يتنزه حتى عن 'وجوب الوجود' و'كمال الوجود' اللذين نسبهما إليه اللاهوت التقليدي. إنه ليس 'كائناً أسمى'، بل مطلق يتخطى الوجود ويهب ذاته للعالم في كل لحظة وأن، دون أن ينحصر في أي أفق محدد للعطاء"^{٢٥}

ولا يخفى ما في هذه الأطروحة من جرأة لاهوتية وفلسفية، لا سيما في مقابل الأنساق الكلاسيكية التي ظلت تقرن المتعالي بالوجود على نحو بديهي. إلا أن ماريون، من جهته، لا يرى فيها تعارضاً مع روح الإيمان أو خروجاً عن حدود المساءلة العقلية، بقدر ما يعتبرها دعوة للانفتاح على ما تتطوي عليه فكرة الله من غنى مطلق يتجاوز كل التصورات البشرية. فكما لاحظ في حوار مع جاك ديريدا: "المفارقة الكبرى هي أن اللاهوت ذاته، منذ أوغسطين وحتى أكويناس، لم يكف عن التأكيد على تعالي الخالق المطلق على كل صفة وجودية يمكن أن ننسبها إليه، بما فيها 'وجوب الوجود' ذاته، الذي

²⁴ **Marion, Jean-Luc**, "The End of Metaphysics as a Possibility", in Religion after Metaphysics, ed. Mark A. Wrathall (Cambridge: Cambridge University Press, 2003, p. 166.

²⁵ **Marion, Jean-Luc**, God Without Being, p. 46

يظل بالنسبة لأفهامنا المتناهية مجرد تصور سلبي لا يمكنه أن يستنفد حقيقة الذات الإلهية. لكن اللاهوت المدرسي وقع أسيراً لهذه الفكرة، لدرجة أنه جعل منها حجر الزاوية في كل برهنة عقلية على وجود الله" ²⁶

وبديلاً لهذا المنحى العقلاني الصرف، سيقتراح ماريون تصوراً مغايراً يستند بالأساس إلى "فعل العطاء المطلق" كمقولة لاهوتية وفينومينولوجية كبرى، تسمح بالإقرار بالتعالى الإلهي دون تقييده في قوالب وجودية مسبقة: "فاله لا يحتاج أن 'يكون' أو 'لا يكون' حتى يهب ذاته للعالم ويتجلى فيه، لأنه يتقدم أصلاً على كل وجود وعدم، بوصفه عطاءً محضاً لا يشترط شيئاً ولا يقيد شيئاً. وهو في هذا، لا يختلف عن ذاته، بل يظل وفياً لجوهره الخاص كمحبة لا متناهية تفيض بذاتها على الخلق في كل لحظة، دون أن تنقص أو تستنفد" ²⁷

لكن هذا التأكيد على مطلقية العطاء الإلهي وتقدمه على الوجود، لا ينبغي بدوره أن يوحي بانفصال تام بين الله والعالم أو بتنائية جذرية بين المتعالى والمتناهي. بل على العكس، فكما يشدد ماريون، فإن القول بـ"الله بدون وجود" لا يفضي إلى إهمال التجليات المحايثة للقداسة، بل هو يتيح على خلاف ذلك استيعاب غناها وتعددتها بمنأى عن كل اختزال أنطولوجي. ذلك أن "التعالى المطلق والحضور الدنيوي يلتقيان هنا، لا كحدين متضادين، بل كتعبيرين متكاملين عن الحركة الواحدة للعطاء التي لا تكف عن خلق العالم وتجديده في كل لحظة. فاله، وإن كان لا ينحصر في أي كائن أو صورة بعينها،

²⁶ Marion, Jean-Luc & Jacques Derrida, "On the Gift: A Discussion between Jacques Derrida and Jean-Luc Marion", in God, The Gift and Postmodernism, eds. John D. Caputo and Michael J. Scanlon (Bloomington: Indiana University Press, 1999, p., 56.

²⁷ Marion, Jean-Luc, God Without Being, 47

فهو مع ذلك لا يغيب عن أي شيء ولا ينفصل عن أي موجود، لأنه يسري في الجميع بلا انقطاع، يمنحهم الكينونة والمعنى والغاية الأسمى^{٢٨}

وهكذا ينبثق لدينا تصور فريد للعلاقة بين الخالق والمخلوق، لا يقوم على المماثلة أو المشابهة الوثنية، ولا حتى على المفارقة المطلقة كما في بعض تيارات الصوفية السلبية، بل على التواصل المستمر بين المحايث والمتعالى عبر حدث العطاء الحي الذي يؤسسهما معاً ويحفظ علاقتهما في آن. إنها بالتعبير الماريوني "علاقة تشاركية أصيلة"، حيث يشترك الطرفان في فيض المحبة الإلهية ذاتها، ويتواصلان عبر فعل الخلق المتجدد، دون أن يختلط أحدهما بالآخر أو يتماهى معه بشكل نهائي: "قاله يظل دائماً مصدر العطاء المطلق وغايته القصوى، والعالم يبقى متلقياً دائماً لهذا العطاء وناقلاً فاعلاً له إلى سائر الخلق. ومن حيث هما كذلك، فإنهما يرتبطان معاً بجذلية خصبة، لا تنفي اختلافهما الجذري، لكنها في الآن ذاته لا تقيم بينهما حواجز صماء أو هوة لا تُردَم"^{٢٩}

وبالطبع، فإن هذه الرؤية الثاقبة لن تسلم بدورها من صعوبات جمة ومفارقات عميقة، كتلك التي تتعلق بإمكانية الحديث عن "عطاء مطلق" دون استحضار أي "مانح" أو "متلقٍ" محددين، أو بكيفية تصور وساطة بين المحدود واللامحدود لا ترتد بالضرورة إلى كائن متوسط بينهما، مهما علا شأنه وخصوصيته. لكن ماريون، في المقابل، سيشتد على أن مفهوم "العطاء"، حين يُفهم بمعناه الظاهراتي الدقيق كـ"حدث" متقدم على كل

²⁸ Ibid., p. 104.

²⁹ Ibid, p. xxiv

تحديد وجودي وماهوي، فإنه سيكون الكفيل وحده باستيعاب تلك المفارقات وحلها دون الوقوع في المحظورات الأنطولوجية الكلاسيكية.

ولعل هذا التحول الماريوني نحو "فينومينولوجيا العطاء" كمقاربة بديلة للمتمعالي، سيجد سنده الأقوى في الأفكار التي طرحها هايدجر نفسه، حيث بدأ يتحدث صراحة عن مفهوم "الحدث" كمقولة تتخطى ثنائية الكائن والكينونة، الذات والموضوع. ففي هذا النص شبه الصوفي المكتوب بلغة شعرية وكثيفة الرموز، سيدعونا هايدجر للتفكير في الوجود، لا كـ"أساس ثابت" أو كـ"كلية شاملة"، بل كـ"نداء" حيوي ومتجدد على الدوام، أو "انبثاق" مستمر للكائنات من رحم الغياب والخفاء: "الوجود ليس على الإطلاق 'موجوداً'، ليس حتى على نحو متعالٍ عما هو موجود، ... ذلك أنه إنما 'يُحصل'، 'يهب ذاته' بوصفه حدث الحقيقة والانكشاف المتجدد لما هو غير معروف"³⁰

وسيكون لهذه الدعوة الهايدجرية الجذرية لتخطي الأنطولوجيا كلياً باتجاه "أنطولوجيا الحدث" تأثير عميق على مشروع ماريون اللاحق، حيث سيعتبرها المنطلق المناسب للحديث عن "عطاء إلهي" قبلي على كل وجود، بل ومؤسس للوجود ذاته. لكنه، بخلاف هايدجر، لن يكتفي بالحديث عن "حدث الوجود" بوصفه كليةً غامضة وشبه ميتافيزيقية، بل سيسعى لتحليل آثاره الملموسة وتجلياته الحية في خبرتنا الدينية المشخصة. لأن ما يهمه في المقام الأول ليس البرهنة على "وجود الله"، بل الكشف عن "معنى المقدس كما يعيشه الإنسان ويستشعره في علاقته بما يتجاوزه"³¹

³⁰ Martin Heidegger, Contributions to Philosophy (Of the Event), trans. Richard Rojcewicz and Daniela Vallega-Neu (Bloomington: Indiana University Press, 2012, p. 254.

³¹ Marion, Jean-Luc, Givenness and Revelation, p. 2.

وهنا تكمن خصوصية المنظور الفينومينولوجي الذي سيتبناه ماريون في تناول العلاقة بين الإنسان والمتعالي، والذي لن يستهدف تقديم "تأسيس منطقي" أو "تفسير علي" لتلك العلاقة، بقدر ما سيركز على وصف أنماط "تجليها الظاهري" في مختلف تخومها وتشكلاتها. ففي مقابل "أنطولوجيا الوجود" التي ستظل رغم كل شيء حبيسة إطار عام ومجرد، ستسعى "فينومينولوجيا العطاء" عند ماريون للإمساك بما في الفعل الإلهي من "وفرة ملموسة" و"غنى دلالي" ينبثق في كل لحظة ويتجسد في كل ما يعترى خبرتنا الحية من أحداث ومواقف ومشاعر ذات بعد قدسي.

ولا يعني هذا طبعاً أن ماريون ينكر أهمية النظر العقلي في الإله وطبيعة ذاته كما عالجت الأنساق الكلامية والفلسفية عبر التاريخ. لكن همه الرئيس، كفينومينولوجي، سيظل منصباً أولاً وأخيراً على استنطاق "التجلي الإلهي في تعدده وفرادته"، قبل أي حكم مسبق بشأن علته الأولى أو غايته النهائية. يقول: "السؤال الأساس بالنسبة إلي ليس هو 'هل الله موجود؟' أو 'ما هي ماهيته وصفاته؟'، بل بالأحرى: 'كيف يُعطي الله ذاته؟' [...] أي كيف يتجلى في عالمنا على نحو يجعل من نفسه معطى بلا شروط يخاطب كل واحد منا في خصوصيته؟ فالتجلي الإلهي بهذا المعنى، هو أولاً وقبل كل شيء 'ظاهرة أصيلة'، أي حدث لا يمكن رده لأي علة أخرى أو اختزاله في أي غاية خارجية عنه. إنه يحدث ببساطة، ويقضي منا استقبال غناه في صفائه، قبل الشروع في أي تفسير عقلي أو لاهوتي لحقيقته"³².

وبذلك تُصبح المهمة المركزية لفينومينولوجيا الدين، كما يتصورها ماريون، هي التركيز على "كيفية" التجلي الديني لا على "لماذا" وجوده. أي استكشاف الطريقة التي يتعطى بها المقدس ويكشف عن حضوره في حياتنا، بدل السؤال المجرد عن سببه الأخير

³² Marion, Jean-Luc, The Visible and the Revealed: p. 119

أو ضرورته المنطقية. وهو ما سيفضي بماريون إلى التخلي تماماً عن أي استدلال كوسمولوجي أو غائي على وجود الله، كما ورد في الأدلة الكلاسيكية، واستبداله بنمط مغاير من "الإثبات الظاهراتي" القائم أساساً على تتبع آثار الفعل الإلهي في الوجود، انطلاقاً من خبرتنا الملموسة للقداسة ومظاهرها في حياتنا اليومية.

وعليه، فإن "الله"، بالمعنى الفينومينولوجي الذي يتبناه ماريون، لن يكون مجرد فكرة نظرية أو افتراض ميتافيزيقي، بل سيُفهم قبل كل شيء كـ"عطاء فعلي" يتقدم على كل تنظير ويؤسس لكل خبرة ممكنة للمعنى: "فحين يمنحنا الله ذاته على نحو نطلق، فإن ما نختبره ليس شيئاً آخر سوى هذا العطاء ذاته في مجانيته وتعاليه. نحن لا نختبر 'موضوعاً' بعينه يمكن حصره في ماهية محددة أو في مفهوم جامع مانع، بل نختبر 'حدثاً' فائقاً يهز أركان كياننا ويأسرنا بما لا يمكن توقعه أو التحكم فيه"³³

ومرة أخرى، ستحضر هنا جدلية الكشف والحبس التي طالما أكد عليها هايدجر في تأملاته بشأن معنى الحقيقة على نحو ما فهمها الإغريق القدامى، والتي يعتبر أنها تتجلى دوماً من خلال "لعبة الظهور والاحتجاب" للوجود. حيث "ما من انكشاف للحقيقة يتم من دون أن ينطوي في الآن ذاته على احتجاب، لأن كل كشف جزئي للوجود يظل يحجب شيئاً من كنهه في الوقت نفسه... فالحقيقي والزائف، النور والظلمة، الإيجاب والسلب، تتشابك دائماً في علاقة أصيلة لا نهائية"³⁴

وسيستلهم ماريون بعمق هذه الرؤية الهايدجرية في صياغة تصوره الخاص للتجلي الإلهي، من حيث هو "حدث متعالٍ" يحجب ذاته بقدر ما يكشف عنها، ويتوارى

³³ Marion, Jean-Luc, In Excess: p. 128

³⁴ Martin Heidegger, "On the Essence of Truth", in Basic Writings, ed. David Farrell Krell (New York: Harper & Row, 1977, p. 133

لحظة ظهوره. إذ كلما تأملنا في تعدد أوجه العطاء الإلهي وتنوع أشكاله، زادنا يقيناً بأنه يتجاوز دوماً كل ما يعطيه، وأن ما يظهر منه ليس سوى وميض لحظي لما يظل متوارياً عن الأنظار والأفهام: "فالله يُعرف بقدر ما لا يُعرف"، كما يقول ماريون، "ولعل في إغرابه المتأصل وفي مقاومته لكل الجهود الرامية لاستنفاد سره أعظم شهادة على حضوره الحي والدائم في عالمنا"^{٣٥}

ولن يكون بعيداً عن هذه الفكرة ما كان قد أكد عليه علماء الكلام المسلمون ، عند حديثهم عن علاقة التنزيه والتشبيه في الذات الإلهية. فكما يقول أبو حامد الغزالي في "المقصد الأسنى": "ولا يعرف الله إلا الله، وأما غير الله فلا يعرفه على الحقيقة، لكن على سبيل التشبيه والتمثيل. .. وأسماءه التي سُمى بها نفسه أعلام وأمارات، لا تحيط بكنهه ولا تدل على ذاته، وإنما هي كلمات أطلقت للبشر لتكون طريقاً إلى معرفة الغيب على قدر الطاقة"^{٣٦} وهو ما ستقترب منه لاحقاً عبارة نيكولا كوزانوس الشهيرة: "إن الله هو الدائرة اللامتناهية التي مركزها في كل مكان ومحيطها في لا مكان"^{٣٧}

وهنا نلمس القاسم المشترك بين هذه الرؤى الدينية والفلسفية رغم اختلافها، ألا وهو التأكيد على "اللامتناهي" كسمة جوهرية للمطلق، وعدم إمكان الإحاطة العقلية بكنهه رغم حضوره الكلي في الوجود. وهي نفس النتيجة التي ستخلص إليها فينومينولوجيا ماريون في نهاية المطاف، وهي تؤكد على أولوية "العطاء" اللامشروط للحقيقة الإلهية،

³⁵ Marion, Jean-Luc, The Idol and Distance: p. 139.

^{٣٦} أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، تحقيق فضلة شحادة (بيروت: دار المشرق، ١٩٧١)، ١٠.

³⁷ Nicholas of Cusa, On Learned Ignorance, trans. Jasper Hopkins (Minneapolis: Arthur J. Banning Press, 1981, p. 59

في مقابل كل مساعي العقل "للتملك" المعرفي والمفهومي لطبيعتها. إذ سيرى ماريون في ذلك تعبيراً عن جوهر الموقف الديني الأصيل، بما ينطوي عليه من ثقة في غنى المعنى الإلهي وتواضع إزاء عدم القدرة على استنفاده.

ويمكن القول بأن التأثير الهايدجري في فكر ماريون سيبلغ ذروته في هذا الربط بين فينومينولوجيا الدين والسؤال عن "معنى الوجود" كما طرحه هايدجر. فماريون يقر صراحة بأن ما يحفزه في المقام الأول هو الرغبة في استعادة هذا السؤال المصيري، لكن ضمن سياق جديد يأخذ بعين الاعتبار خصوصية التجربة الدينية في بعدها الإيمانى والقيمي المتعالي. يقول في هذا الصدد: "هايدجر علمنا أن نسأل عن معنى الوجود انطلاقاً من الوجود الخاص للإنسان (Dasein) وما يطبعه من "انفتاح" أصيل على حقيقة الكينونة. . . لكن السؤال الذي يطرحه ماريون هو: ماذا لو اعتبرنا العلاقة بالمقدس، في أبعادها الوجودية والظاهراتية، جزءاً لا يتجزأ من تكويننا الأنطولوجي ومن طريقة انكشاف العالم لنا؟ ألا يمكن حينها إعادة طرح مسألة 'معنى الوجود' ذاتها انطلاقاً من معطى التجلي الإلهي والاستجابة الإيمانية التي يستدعيها؟"³⁸.

وهنا سيكون واضحاً مدى سعي ماريون لتوظيف المكاسب النظرية والمنهجية للفينومينولوجيا الهايدجرية في التأسيس لأنطولوجيا جديدة للفعل الديني، لا تكتفي بالحديث المجرد عن "كينونة الإله" بل تنصت لأشكال تجليه الخاصة في الوجود وتفاعل الذات المؤمنة معها. غير أنه سيتجاوز في الآن ذاته النزعة الأنطولوجية لهايدجر، مقترحاً التفكير في "اللامتناهي" لا ك"أفق للكينونة" بل ك"عطاء يسبق الكينونة ويمنحها ذاتها

³⁸ Jean-Luc Marion, Being Given: p. 4.

للعالم". وهو العطاء الذي لا يمكن تحديده بحدود الوجود، مهما اتسعت، لكن يتعين استقبال فيضه اللامتناهي بقلب منفتح وذهن متفتح.

وفي ختام هذا المطلب ، يمكن القول إن فينومينولوجيا الدين عند ماريون، من خلال حوارها المتوتر والخلاق مع كل من هوسرل وهايدجر، ستنتهي إلى صياغة رؤية مستقلة ومتميزة لدراسة الظاهرة الدينية بعيداً عن المقاربات الفلسفية والكلامية التقليدية لها. فهي لا تكتفي بنقد التمرکز الذاتي للوعي، بل تدعو لتجاوز كل أنطولوجيا للوجود ذاتها لصالح التفكير في المطلق كعطاء محض لا يختزل في أي تحديد، يهب ذاته باستمرار لكل معنى وكينونة دون أن يستنفد فيها. ومن هنا فإنها ستقلنا من أفق السؤال عن "ماهية الإله" إلى السؤال الأصلي عن "تجليه الفعلي"، ومن البحث في "عل وجوده" إلى التساؤل عن "سبل عطائه"، وذلك في محاولة لإرساء علاقة جديدة مع المقدس لا تقوم على المعرفة الحصرية، بل على الانفتاح الأصيل لاستقبال ما يفوق الإدراك والمفهوم.

المطلب الثالث: فينومينولوجيا العطية والتجلي

بعد استعراضنا لتأثير هايدجر على فكر ماريون، وبيان أوجه الاستلهام والنقد في مقاربتة لمسألة الوجود والكينونة، يمكننا الآن التطرق إلى الخطوة الحاسمة التي قام بها ماريون في مساره الفلسفي، وهي تحوله من "الأنطولوجيا" بالمعنى الكلاسيكي، إلى ما أسماه بـ"فينومينولوجيا العطية" (phenomenology of givenness). حيث يمثل هذا التحول، في نظرنا، لحظةً فارقةً ليس فقط في مسيرة ماريون الفكرية، بل في الفينومينولوجيا المعاصرة ككل، لما ينطوي عليه من إعادة نظرٍ جذريةٍ في مفهوم "الظاهرة" وفي حدود المنهج الفينومينولوجي برمته.

فكما رأينا سابقًا، ينطلق ماريون من نقد الأنطولوجيا التقليدية التي تختزل الله في "الموجود الأسمى"، أو في مجرد "علة أولى" تقف وراء سلسلة العلل والمعلولات. وهو ما يعني، بالنسبة إليه، إخضاع الله لمقولات الوجود والماهية، وحصره في إطار التمثلات الميتافيزيقية البشرية المحدودة. وفي مواجهة هذا الاختزال الأنطولوجي، يدعو ماريون إلى ضرورة التفكير في الله خارج نطاق "الكينونة"، أي بوصفه "عطية محضة" (pure givenness) تتجاوز كل تحديد وجودي أو ماهوي.

يقول ماريون في هذا الصدد: "لكي نفكر في الله بطريقة لائقة، يجب أن نتحرر أولاً من فخ 'الإله الأنطولوجي'، أي من تصور الإله بوصفه 'موجوداً' أو 'كائنًا' يخضع لمقولات الفكر. فالله ليس 'موجوداً'، ولا حتى 'وجوداً'، بل هو 'عطاء' مطلق يتقدم على كل وجود وكل فكر، ويتجاوز كل الحدود الأنطولوجية والمعرفية الممكنة".³⁹

هذا التحول نحو "فينومينولوجيا العطية" ن هو نقطة تحول حاسمة في مسار فلسفة جان لوك ماريون، حيث ينتقل من الاهتمام بشروط إمكان المعرفة في الذات والوجود، إلى التساؤل الجذري عن إمكانية "تجلي المطلق" خارج الأطر الأنطولوجية والميتافيزيقية التقليدية. فالمعطي الديني، بحسب ماريون، هو في جوهره "عطية مطلقة" (absolute givenness) تتقدم على كل محدد قبلي للخبرة، وتحيل إلى "ظاهرة مشبعة" (saturated phenomenon) تطغى بغزارتها على كل أفق منتظر لتأويلها أو استيعابها"⁴⁰

³⁹ Marion, Jean-Luc. God Without Being: p. 60.

⁴⁰ Marion, Jean-Luc, Being Given: p. 234

وهذا يعني، من منظور ماريون، ضرورة تعليق السؤال عن "ماهية" المقدس أو "وجوده"، والتركيز عوضاً عن ذلك على "كيفية عطائه" و"حدث تجليه" في تجربتنا المعيشة. فالأولوية هنا ليست للسؤال "ما هو الله؟" أو "هل الله موجود؟"، بل للسؤال "كيف يهب الله ذاته؟" وكيف يمكن استقبال هذا العطاء في وجودنا الفعلي، دون إرجاعه إلى أي مقدمات نظرية خارجه؟^{٤١} لأن التجلي الإلهي، في حقيقته العميقة، هو "حدث غير مشروط" يتقدم على كل الشروط الإمكانية في الذات أو نسق الموجودات، ويمنحها ذاته هي إمكان الظهور والانكشاف^{٤٢}

هذا الطرح سيثير بدوره عدة إشكالات عويصة: ألا يقودنا القول بـ"العطاء الصرف" إلى ضرب من اللاهوت السلبي القصوي الذي ينأى بالطلق عن تناول العقل والنطق؟ وكيف يمكن استبعاد كل أساس متقدم في التجربة الدينية، دون الارتداد إلى نزعة صوفية ذاتوية تنصهر في المحايثة المباشرة للمقدس؟ تساؤلات مركزية يتساءلها ماريون وتدفع به للتشديد على أن "العطية المطلقة" لا تعني استقلالية المعطى الإلهي عن الوعي، كما لا تلغي ضرورة التأويل والوساطة الرمزية، بل هي تحيل في العمق إلى "حدث العلاقة" الجذري بينهما: إنها ليست معطى منفصلاً، بل "عطاء مشترك" و"تبادل حي" بين "معطٍ" و"قابل" يتأسس كل منهما في نسبته للآخر، دون أن يُختزل أحدهما في الآخر.^{٤٣}

وهنا ستظهر الصلة الوثيقة بين فكر ماريون وبعض المنعطفات الأساسية في الفينومينولوجيا المعاصرة. فمن جهة، سيستلهم كثيراً من نقد هايدجر للميتافيزيقا

⁴¹ Marion, Jean-Luc, The Visible and the Revealed, , p. 18

⁴² Marion, Jean-Luc, In Excess: p. 129.

⁴³ Marion, Jean-Luc, Reduction and Givenness: p. 202

الكلاسيكية، لا سيما من خلال مفهوم "الاختلاف الأنطولوجي" (ontological difference) بين الوجود والموجود كبديل للثنائيات الجوهرانية التقليدية لكنه ماريون في المقابل، سيتجاوز "أنطولوجيا الوجود" الهايدجرية ذاتها، مؤكداً "أن العطاء المحض يسبق كل كينونة، ويتقدم على كل أساس وجودي كلي، مهما كان نوعه" ⁴⁴. وهو بذلك سيقترّب أكثر من موقف ليفيناس ومحاولته لتخطي الأنطولوجيا الكلاسيكية ككل لصالح "أخلاقيات المغايرة" (ethics of alterity) القائمة على "تعالى الآخر" و"لا تنهيه الوجه" كمصدر أول لمعنى الذات والعالم ⁴⁵

إلا أن ماريون، بخلاف ليفيناس، لن يكتفي بنقل مركز الثقل من "الوجود" إلى "المغايرة"، بل سيتجه صوب التخلي كلياً عن كل "منطلق تأسيسي" أو "ذريعة عليّة" للخبرة الدينية، نحو التفكير في التجلي الإلهي ك"حدث مطلق" و"عطاء محض" يتجاوز كل تعيين، سواء كان وجودياً أم أخلاقياً بالمعنى الكلاسيكي ⁴⁶ "وهو ما سيعبر عنه بالقول إن "الله يعطي ذاته دون أن يكون"، بمعنى أن التجلي الخالص للقداسة لا يحتاج لافتراض أي "كائن أسمى" أو "علة قصوى" يستمد منها إمكانه، بل هو يحدث تلقائياً وينبثق بأصالة تامة من ذاته ومن حيث هو "حدث مطلق للعطاء"، لا من حيث استناده لوجود متعال مسبق عليه ⁴⁷

وهنا بالضبط يكمن جوهر الخلاف بين ماريون وهايدجر: ففي حين يظل الأخير مشدوداً إلى "سؤال الوجود" كسؤال أنطولوجي مهيمن، فإن الأول سيسعى لتخطيه كلياً

⁴⁴ Jean-Luc Marion, God Without Being: p, xxiii.

⁴⁵ Emmanuel Levinas, Totality and Infinity: An Essay on Exteriority, trans. Alphonso Lingis (Pittsburgh: Duquesne University Press, 1969, p. 294

⁴⁶ Jean-Luc Marion, The Idol and Distance: p. 140.

⁴⁷ Marion, Jean-Luc, God Without Being, 71-72.

صوب ما يسميه "سؤال العطاء"، الذي لا يفترض أي وجود مطلق يتقدمه، بل ينطلق من التزامن الجذري بين العطاء والتلقي الذي يؤسس كلاً منهما داخل حدث العلاقة الملموسة بينهما " ^{٤٨} فالله لا يوجد أولاً "في ذاته" ثم "يعطي ذاته" للإنسان، ثانياً بل هو يوجد فقط "بما هو معطى" وفي "حدث عطائه" ذاته، الذي لا يحيل إلى مرجعية خارجه بل ينبثق كلياً وينحصر تماماً في تجلياته الظاهرية المتعددة.

وسيعتبر البعض هذا الموقف ضرباً من "اللاعقلانية" التي لا تترك أي مجال للوساطة الرمزية أو العقلانية في فهم الظاهرة الدينية، بل تحصرها في نوع من "اللقاء الصوفي" المباشر والانصهار التام بين الذات والمقدس " ^{٤٩}. لكن ماريون سيؤكد على العكس أن القصد من القول بـ"أولوية العطاء المطلق" ليس إلغاء التأويل أو نفي إمكان المعرفة، بل بالأحرى "تحرير الحدث من القيود النظرية المسبقة"، وإعادة الاعتبار لغناه الخاص كما ينبثق فعلاً قبل كل استيعاب مفهومي له. وبتعبيره: "فكرة العطاء لا تقصي العقل أو تتجاهل دوره، بل تدعوه لتوسيع آفاقه وتجديد أدواته لكي يرقى لمستوى الحدث الذي يواجهه، بدل أن يختزله في الأطر الجاهزة ويكتفي بإعادة إنتاج المسلمات القارة بشأنه" ^{٥٠}.

وتأسيساً على ذلك، سيقترح لنا ماريون "لاهوياً سلبياً إيجابياً"، لا يقف عند حدود القول بـ"لا معقولية الله"، بل يسعى لاستكشاف دلالات هذه اللامعقولية ذاتها وما تنفتح عليه من معانٍ وجودية خصبة. إنه يدعونا إلى "المثابرة الإيجابية في طرح السؤال

⁴⁸ Marion, Jean-Luc, Being Given, 3-4

⁴⁹ Shane Mackinlay, Interpreting Excess: Jean-Luc Marion, Saturated Phenomena, and Hermeneutics (New York: Fordham University Press, 2010), 85-89.

⁵⁰ Marion, Jean-Luc, The Visible and the Revealed, 68-69

واستنفار التفكير"، انطلاقاً من التسليم بعدم كفاية المقولات النظرية والبدايات المنطقية وحدها للإحاطة بجوهر التجربة الدينية في غناها الفائق وامتلائها الزائد. ومن ثم فالعطاء الإلهي وإن كان يتجاوز العقل ويفلت من قبضة المفهوم، فإنه لا يلغي المعقولة بل "يوسعها" ليشمل ما يتخطاها، ويدفعها لتخطي ذاتها صوب "اللامفكر فيه" على حد تعبير هايدجر، أي صوب "اللامتناهي" الذي يخترق حدود الفهم الإنساني من كل جانب دون أن يمحوها.

ولهذا فإن "فينومينولوجيا العطاء"، قبل أن تكون مجرد نظرية معرفية أو مذهب لاهوتي بديل، ستكون في المقام الأول "تجربة وجودية" و"مغامرة روحية" تروم العيش في كنف الإمكان المفتوح، والاستعداد الدائم لاستقبال ما يتعذر توقعه أو السيطرة عليه بتمامه. فهي "دعوة للمخاطرة" بكل الثوابت والمسلمات، والتزام بالبحث المتواصل عن "المعنى القادم" عبر مسالك جديدة لم تطأها الأقدام من قبل.⁵¹ وهي في هذا، وعلى حد تعبير ماريون، "تشبه رهان الإيمان ذاته"، الذي لا يقدم ضمانات أخيرة ولا يعد بحصاد نهائي، بل يظل قفزة دائمة في المجهول على أمل أن "للوجود حقيقة كامنة" تتجاوز ما يبدو منه، وأن "الحياة غاية قصوى" تسعى إليها حتى وإن كان بلوغها أمراً محتملاً لا مؤكداً في النهاية.⁵²

إن مشروع ماريون إذن، بتحوله الجذري نحو "فينومينولوجيا العطاء"، لن يقدم لنا نسقاً فكرياً مغلقاً أو خلاصة نظرية نهائية في باب فهم التجربة الدينية. بل سيظل في جوهره "ورشة عمل مفتوحة" و"دعوة متواصلة للتفكير" انطلاقاً من إعادة طرح السؤال عن حقيقة العلاقة بين الإنسان والمقدس على نحو أصيل، متحرر من أسر المقاربات التقليدية

⁵¹ Marion, Jean-Luc, The Idol and Distance, 184

⁵² Ibid: p., 77

التي طالما هيمنت على تراثنا اللاهوتي والفلسفي. إنها محاولة جريئة لتجاوز ثنائية الذات والموضوع، الإيمان والعقل، الوجود والماهية، صوب أفق ظاهراتي جديد يستند بالأساس إلى فكرة "الحدث" و"التجلي الحي" للمطلق في صلب الخبرة الإنسانية، دون إحالته إلى أي "مبدأ كلي متقدم" أو "جوهر ثابت" مفارق لها. ^{٥٣}

لكن هذا الطرح الثوري لن يخلو بطبيعة الحال من إثارة جملة من الإشكالات المنهجية والميتافيزيقية العميقة: فهل بوسع العطاء المطلق أن ينفصل حقاً عن كل سياق استقبالي يمنحه المعنى؟

وهل يمكن للحدث أن ينشأ من تلقاء ذاته دون أي إحالة لشروط إمكانه؟

ألا يعيد مفهوم العطاء ذاته، رغم كل محاولات تخليصه من النزعة الأساسية، إحياء فكرة "العلة الأولى" و"الجوهر القائم بذاته" التي ظلت ملازمة للفكر الميتافيزيقي منذ أرسطو وحتى هايدجر؟

تساؤلات خطيرة بلا شك، ستظل تطارد مشروع ماريون وتدفعه لمزيد من التدقيق والمراجعة، بعيداً عن اليقين الجازم أو الإجابات القاطعة. لكنها مع ذلك، لن تنفي ما ينطوي عليه هذا المشروع من إضافة نوعية مهمة في مسار الفلسفة المعاصرة، عبر محاولته الجادة لتجديد مقاربة الظاهرة الدينية من زاوية "تجليها الفعلي" في الخبرة الإنسانية، بدل ردها إلى مبادئ عامة أو بنى قبلية خارجة عنها.

وسواء اقتنعنا أم لم نقتنع بأطروحاته النهائية، فإن ماريون سيظل يذكرنا دوماً بأن "حقيقة الإيمان" ليست معطى جاهزاً نمتلكه، ولا هي مضمون عقدي ثابت نحوزه، بل هي

⁵³ Marion, Jean-Luc, "Metaphysics and Phenomenology: A Relief for Theology," *Critical Inquiry* 20/4 (1994), p. 590-591.

قبل كل شيء "حدث وجودي" نعيشه في علاقة حية مع المطلق تتسم بالانفتاح المتواصل على إمكاناته اللامتناهية. وهو ما يتطلب منا شجاعة الإقامة في قلب السؤال، والمثابرة على طرح الأسئلة رغم كل ما قد يعترضها من حيرة وقلق، انطلاقاً من رهان إيماني أصيل على أن للوجود "معنى أقصى" يتجاوز كل ما نظنه عنه، وأن مغامرة البحث عن هذا المعنى وإن كانت شاقة ومحفوفة بالمخاطر، إلا أنها تظل المغامرة الإنسانية الأكثر جدارة بأن تعاش. "°٤ بحسب ما ذهب إليه ماريون .

وبهذا، فإن ماريون يمهد الطريق أمام آفاق جديدة في مقاربة "سؤال المقدس"، آفاق لم يعد بوسع الفكر الفلسفي المعاصر تجاهلها أو الالتفاف عليها، بل يتعين عليه استيعابها وتمثلها كي يرقى لمستوى تحديات عصر ما بعد الميتافيزيقا وهمومه الروحية العميقة. وهو ما يفتح الأبواب واسعة أمام مباحث قادمة، ستسعى لاستكشاف تفاصيل هذه المقاربة الظاهرانية الماريونية والوقوف على أهم مفاصلها وإشكالاتها، في رحلة واعدة عبر تخوم اللامتناهي وآفاق المعنى، تحدها رغبة عارمة في إعادة اكتشاف حقيقة إيماننا وما ينطوي عليه من دلالات وجودية ستظل تستحق منا دوماً كد الفكر وجهد الروح، مهما استعصى علينا بلوغ كنهها الأخير أو الإحاطة بسرها المكنون.

⁵⁴ Marion, Jean-Luc, The Rigor of Things: p. 89

المبحث الثاني: مفهوم العطية وتجليات المقدس في فينومينولوجيا الدين

عند ماريون

المطلب الأول: العطية المطلقة والتجلي غير المشروط

يُعد مفهوم "العطية المطلقة" (absolute givenness) من المفاهيم المحورية في فينومينولوجيا الدين كما طورها جان-لوك ماريون، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بتصوره للتجلي الإلهي كحدث متعالٍ يتخطى كل الشروط الأنطولوجية والمعرفية المحددة سلفاً. فكيف يتحدد هذا المفهوم في أعمال ماريون؟ وما علاقته بنقده للأنطولوجيا الكلاسيكية من جهة، وبمشروعه لتجديد الفهم الفينومينولوجي للظاهرة الدينية من جهة أخرى؟

في كتابه المبكر "الله دون وجود" (God Without Being)، يستهل ماريون تحليله بالتشكيك في ملاءمة مقولة "الوجود" (Being) ذاتها للحديث عن الله أو عن تجليه. ذلك أنها، كما يقول، "تظل قيماً وتحديداً مفهوماً لا يتناسب مع التعالي المطلق للحقيقة الإلهية"، بل إنها "تختزل غنى وتنوع تجلياتها في صورة ثابتة وجامدة" ° وهو ما دفعه للدعوة إلى تحرير التفكير اللاهوتي برمته من "أنطولوجيا الوجود الأعلى"، التي هيمنت عليه منذ العصور الوسطى، والتوجه صوب أفق أرحب للتأمل في "عطاء" الله المجاني السابق على كل تقييد وجودي.

لكن نقد ماريون للتصور الأنطولوجي الكلاسيكي لا يقف عند حدود اللاهوت، بل يتخطاه ليشمل الميتافيزيقا الغربية ككل، من أفلاطون إلى هيدغر. ففي دراسته 'تقليص العطاء' (Reduction and Givenness)، يعتبر أن "مقولة الوجود ظلت بمثابة الأفق النهائي غير القابل للتجاوز في تاريخ الفلسفة بأسره، [...] وحتى حين تمت مساءلتها،

⁵⁵ Marion, Jean-Luc, God Without Being: p. 16

كما لدى هيدغر، فقد كان ذلك من أجل تعميقها لا تخطيها"^{٥٦} وهو ما أدى، حسب تشخيصه، إلى "استنفاد" الطاقات التأملية للفكر ضمن حدود ضيقة، وحال دون انبثاق إمكانات جديدة لمقاربة المعنى والحقيقة.^{٥٧}

في مقابل ذلك، وكبديل جذري للنموذج الأنطولوجي السائد، يقترح ماريون التأسيس لما يسميه "فينومينولوجيا العطاء" (phenomenology of givenness)^{٥٨} وفحواها، باختصار، أن كل ظاهرة يمكن اختبارها ومعايشتها إنما تستمد كينونتها ومعناها، لا من ذاتها ولا من وعي الذات المدركة لها، بل من "فعل العطاء المحض" (pure givenness) الذي يسبقها ويتيح لها أصلاً أن تظهر وتُدرك. أي أنه، على عكس ما افترضته الفلسفة الحديثة منذ ديكارت، "ليس الوعي هو الذي يؤسس الظاهرة، بل العطاء المطلق هو الذي يؤسس الوعي ذاته ويمنحه إمكان استقبال ما يعطيه"^{٥٩}

وهنا تتجلى الثورة الكوبرنيكية التي تمثلها فينومينولوجيا ماريون في علاقة الذات بالعالم والمعنى. فهي لا تعتبر الأنا المتعالية منبعاً للحقيقة ولا معياراً لصدقها، بل تنظر إليها كـ"متلقٍ" و"شاهد" لما يمنح ذاته لها من تلقاء ذاته. وبذلك تنقلب الأولوية من "القصدية" (intentionality) الذاتية، كما صاغها هوسرل، إلى "الاستقبالية" (receptivity) المنفعلة بالمعطى السابق على كل توجه ذاتي. يقول ماريون: "الوعي، قبل أن يقصد المعنى، يتلقاه كعطية نابغة من حدث يتجاوز كل أفعاله القصدية... والذات، قبل أن تكون 'أنا أفكر'، هي 'أنا أستقبل' و'أنا أتلقى'"^{٦٠}

⁵⁷ - Marion, Jean-Luc, Reduction and Givenness: p. 4

⁵⁸ Marion, Jean-Luc, Being Given: p. 5

⁵⁹ Ibid, p. 262.

⁶⁰ Ibid., 264

لكن العطاء المحض، كما يشدد ماريون، لا يمكن تصوره كـ"سبب" أو "علة" وراء الظواهر، كما قد يوحي المنظور الميتافيزيقي التقليدي. لأن ذلك من شأنه أن يعيد إدراجه ضمن أنطولوجيا الوجود والجوهر، ويحوّله إلى مجرد "موجود أسمى". في حين أنه، كـ"فعل" نقي متقدم على الوجود ذاته، لا يحيل على مصدر محدد ولا يرتهن بغاية نهائية، بل "يعطي ذاته في العطاء ذاته، من حيث هو حدث متعالٍ على كل الشروط والتحديدات القبلية"^{٦١}. وهو ما يعني أنه يتضمن دائماً "فائضاً" لا يمكن استنفاده أو تطويقه في أي أفق للحضور أو الامتلاك.

وهنا بالضبط، وفي قلب هذا "الفائض"، يكمن بحسب ماريون السر الكامن وراء كل تجلٍ ديني أصيل. ذلك أن المقدس، في حقيقته العميقة، ليس سوى "عطاء مطلق يتخطى كل ما يُعطى، وتجلٍ متعالٍ على كل ما يتجلى". فإله، كما يقول في "الله بدون وجود"، "لا يمكن حصره في دائرة الوجود ولا تحديده بمقولاته، لأنه يتجاوزها أصلاً بما هو فيضٌ سخّي للمعنى والحقيقة، لا ينبع إلا من ذاته"^{٦٢} وبالتالي، فإن كل محاولة لاستنفاد غناه اللامتناهي في صيغة نهائية، أو لتقييد حريته المطلقة في العطاء بشروط مسبقة، هي بمثابة وثنية مقنّعة تحجب أكثر مما تكشف.

وفي دراسته "العطاء الزائد" (The Saturated Phenomenon)، يستعين ماريون بتحليلات هوسرل حول "التشبع الحدسي" (intuitive saturation) ليبين كيف أن التجلي الإلهي يتسم دائماً "بفائض مطلق في المحتوى الظاهراتي، يطغى على كل ما يمكن للوعي المتلقي استيعابه أو بلورته ضمن أفق معين للمعنى"^{٦٣}. فالله حين يُعطي

⁶¹ Marion, Jean-Luc, In Excess: p. 35.

⁶² Marion, Jean-Luc, God Without Being, p. 47

⁶³ Marion, Jean-Luc, "The Saturated Phenomenon," p. 198.

ذاته، لا يدخل أبداً في حيازة الذات ولا يصير ملكاً لها، وإنما يظل فائضاً عنها، يدهشها ويصدمها ويدعوها للخروج من ذاتها والانفتاح على ما يتجاوزها"⁶⁴

وهكذا تتضح العلاقة الجدلية العميقة بين "العطية المطلقة" و"التجلي غير المشروط" عند ماريون. فالأولى هي الأصل الدينامي الكامن وراء الثاني، والذي يمنحه طابعه المتعالي المتجاوز لكل القيود والتحديدات. فيما الثاني هو التعبير الظاهراتي الملموس عن فيض الأولى اللامتناهي وانبثاقه المتجدد في عالم التجربة المحسوسة. وكلاهما، معاً، يشكلان في نظره لبَّ المعنى الديني الأصيل، الذي لا يختزل المقدس في "موضوع" للمعرفة أو "كائن" منفصل عن الوجود، بل يقر بغنى تجلياته وتعدد أوجه عطائه التي تتخطى كل إمكانات الحصر والتقنين.

ولا يخفى ما لهذه الرؤية الماريونية من تبعات هامة على الفهم الفينومينولوجي للظاهرة الدينية. فهي تسمح بتجاوز ثنائية "الحضور والغياب" الكلاسيكية إلى العلاقة الأكثر أصالة بين "العطاء والتلقي"، وبالتالي استبدال سؤال "الكينونة" بسؤال "الحدث" كمدخل لتأمل المعنى القدسي. كما تفتح الأفق لتصور جديد للعلاقة بين المطلق والمتناهي، لا يقوم على التماهي ولا على الانفصال التام، وإنما على التواصل عبر التجلي المتعالي الدائم الذي لا يلغي الفارق الوجودي بين الذات الإلهية والذات الإنسانية، بل يؤكد في الحركة ذاتها التي يتيح فيها للثانية المشاركة في غنى الأولى⁶⁵.

بيد أن هذه المحاولة لا تخلو، في المقابل، من نقاط إشكالية وتوترات كامنة. فعلى المستوى المنهجي، قد يُسأل عن شرعية الحديث عن "معطى" بدون "قصد"، أو عن "تجلٍ" بدون "أفق استقبال" محدد. أليس في ذلك تناقض مع المبادئ القارة للتحليل

⁶⁴ Marion, Jean-Luc, In Excess, 162

⁶⁵ Marion, Jean-Luc, The Visible and the Revealed, p. 37

الظاهراتي، التي تنص على استحالة فصل القطبين أو تصور أحدهما بمعزل عن الآخر؟^{٦٦} ثم كيف يمكن وصف "العطاء المطلق" وتمييزه عن باقي الظواهر، طالما أنه يفلت بحكم تعريفه من كل الشروط القبلية للإدراك والحكم؟

وعلى صعيد آخر، يمكن التساؤل عما إذا كان التشديد على "تعالى" العطاء الإلهي وامتناعه عن كل تعيّن، لا ينزلق إلى حد ما في هوة "اللاهوت السلبي" الذي طالما انتقده ماريون. فهل من الممكن حقاً الكلام عن تجلٍ للمقدس دون الإقرار، ولو ضمناً، ببعض "الصفات الثبوتية" التي تتيح تمييزه عن غيره؟^{٦٧} وإذا كان المتعالى بالضرورة يتجاوز اللغة والفهم والشروط الترنسندنتالية للذات، فأى معنى يبقى عندها للقول إنه "يُعطي" ذاته أو "يمنح" وجوده للعالم؟

علاوة على ذلك، لا بد من ملاحظة التوتر بين التوكيد على حرية العطاء الإلهي المطلقة، وبين اعتبار هذا العطاء "حدثاً" لا "ماهية". ذلك أن كل حدث، بمعناه الفينومينولوجي، يقتضي بالضرورة "أفقاً زمانياً" يقع فيه ويُستقبل انطلاقاً منه، فيما المتعالى المحض لا يمكن إدراجه ضمن أي زمانية أو تاريخية محددة.^{٦٨} وهو ما يهدد بتحويل العلاقة بين الأزلي والزمني إلى مجرد محاكاة لنموذج الفيض الكلاسيكي في الأفلاطونية المحدثة، وإن بمصطلحات معاصرة.

⁶⁶ Dominique Janicaud, "The Theological Turn of French Phenomenology," in Phenomenology and the "Theological Turn", 58.

⁶⁷ Shane Mackinlay, Interpreting Excess: Jean-Luc Marion, Saturated Phenomena, and Hermeneutics (New York: Fordham University Press, 2010), p. 131.

⁶⁸ Bruce Ellis Benson, Graven Ideologies: Nietzsche, Derrida & Marion on Modern Idolatry (Downers Grove, IL: InterVarsity Press, 2002), 181

ورغم هذه التحديات، تبقى مقارنة ماريون للعطية المطلقة والتجلي اللامشروط ذات أهمية بالغة في مشروعه لتجديد الفهم الفينومينولوجي للدين. فهي تتيح إعادة طرح السؤال عن المقدس خارج الأطر الأنطولوجية والسببية التقليدية، وتفتح الباب أمام تصور أكثر دينامية وافتتاحاً لعلاقة المطلق بالظاهر، كحدث متجدد للعطاء لا ينقطع ولا يُستنفد. كما أنها تضع أمامنا تحدياً إيجابياً لتوسيع مدارك التحليل الظاهراتي ليشمل ما يتجاوز شروط الموضوعية والقصدية المألوفة، دون التخلي عن دقته المنهجية واستقلاليتها الفلسفية.

وهي بهذا تلتقي، إلى حد بعيد، مع بعض التيارات الفلسفية والصوفية في تراثنا العربي الإسلامي. فليس بعيداً عنها، مثلاً، تأكيد ابن عربي في "الفتوحات المكية" على أن الحق تعالى "أوجد الخلق عن كرم وجود لا عن علة"، وأنه "ما فتح عين موجود قط إلا والحق متجلٍ له فيها بقدر ما تعطيه حقيقة ذلك الموجود، فجميع الموجودات مظاهر للحق"^{٦٩}. أو كذلك حديث السهروردي عن "النور الأقرب" الذي يفيض بذاته على سائر الأنوار ويمنحها وجودها، دون أن تحده علاقة عليية بالمعنى الأرسطي^{٧٠}

لكن ماريون، بالطبع، لا يكتفي بمجرد تكرار هذه الأفكار، بل يعيد صياغتها ضمن نطاق التحليل الفينومينولوجي الصارم لكيفية تجلي المطلق وإمكانية استقباله في الخبرة المعيشة. كما أنه يتحاشى، قدر الإمكان، النزعة الحلولية أو وحدة الوجود التي

^{٦٩} محيي الدين ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق أحمد شمس الدين (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٤)،

:٢، ٣٩٠، ٤٣٨.

^{٧٠} شهاب الدين السهروردي، رسائل فلسفية، تحقيق صائب عبد الحميد (القاهرة: دار الكاتب العربي،

١٩٧٠)، ٢٣٩-٢٤١.

طُبعت الكثير من تيارات التصوف والعرفان، مؤكداً على تعالي "عطاء" الله ومجانيته في كل لحظة من لحظات التجلي العياني أو الشهودي.

وفي هذا الشأن بالذات، وعلى سبيل التمايز، يأتي تركيزه الشديد على مفهوم "المحبة" (love) كتعبير أسمى عن حقيقة العلاقة بين الخالق والمخلوق. ففي دراسته "Prolegomena to Charity"، يقول: "المحبة وحدها هي ما يمكنها أن تصف بشكل ملائم طبيعة العطاء الإلهي. فالله لا يمنح ذاته للوجود ولا يخلق العالم انطلاقاً من حاجة أو ضرورة، وإنما يفعل ذلك فقط بدافع المحبة التي لا تشترط شيئاً ولا تنتظر مقابلاً"^{٧١}. وهي محبة، كما يضيف، لا تقبل القياس بمعاييرنا البشرية المتناهية، لأنها في حقيقتها "عطاء الذات بلا حدود ولا قيد".

وبذلك يعيد ماريون الاعتبار للبعد الشخصاني والوجداني في التجربة الدينية، كما عاشها على وجه الخصوص القديسون المسيحيون ومتصوفة الحب الإلهي. ففي مقابل التجريد الفلسفي والتنزيه الصوفي، يؤكد على إمكانية لقاء حميمي بين الإنسان والإله، لا يلغي المسافة الأنطولوجية بينهما، لكنه يجعل للثاني حضوراً حياً ووجودياً في سيرة الأول من خلال فيض عطائه ونداء محبته المتعالية. "^{٧٢} وهو المنحى عينه الذي نجده، على سبيل المثال لا الحصر، في كتابات باسكال وكيركيغارد، وفي شذرات المتصوفة من أمثال رابعة العدوية والحلاج.

⁷¹ Marion, Jean-Luc, Prolegomena to Charity, p. 29.

⁷² Lorenz B. Puntel, Being and God: A Systematic Approach in Confrontation with Martin Heidegger, Emmanuel Levinas, and Jean-Luc Marion, trans. Alan White (Evanston, IL: Northwestern University Press, 2011, p. 389.

غير أن ربط العطاء الإلهي بالمحبة لدى ماريون لا يخلو من إثارة بعض الأسئلة الحرجة: أليس في الحديث عن "محبة" متعالية يكمن خطر "أنسنة" التصور الإلهي أو إسقاط المشاعر البشرية على الذات الإلهية؟ وكيف يمكن أصلاً وصف محبة لا تشترط شيئاً، طالما أن المحبة في معناها الإنساني تقتضي دائماً علاقة تبادلية بين أطرافها؟ ثم ألا يؤدي الربط الحصري بين العطاء والمحبة إلى استبعاد وجوه أخرى مهمة من تجليات الحضور الإلهي، كالقدرة أو العدالة أو الغضب؟

أسئلة لاهوتية عميقة لا شك، لا يدعي ماريون تقديم أجوبة نهائية عنها، بل يرى فيها بالأحرى محفزاً لمزيد من التأمل والاجتهاد الفلسفي. فهو يدرك تماماً المفارقة التي تكتنف أي خطاب عن "المحبة الإلهية"، لكنه يراها مفارقة منتجة، لا تعطل البحث الظاهراتي الجاد بل تفتح أمامه آفاقاً لا محدودة. ولعله ما يلخصه بقوله: "ربما تكون أعظم مفارقة للمحبة، أننا كلما أحببنا بطريقة صحيحة، أدركنا أننا لم نحب بعد. وهو ما ينطبق، بالدرجة القصوى، على محبة الله التي تظل دائماً فائضة على كل محاولاتنا لاستنفادها أو امتلاكها"⁷³.

في ضوء ما سبق، نخلص إلى أن مفهوم العطية المطلقة عند ماريون، رغم افتراضيته وتجريدته، ينطوي على مضامين فلسفية وروحانية غنية وعميقة. فهو يسعى من خلاله لتحرير التأمل في حقيقة الحضور الإلهي من أسر النماذج الميتافيزيقية والسببية الضيقة، ويدعو في المقابل لاستكشاف أصالة معنى هذا الحضور كـ"حدث" متعالٍ يخترق شروط الفهم المحدودة ويتجاوزها بلا انقطاع. كما أنه يعيد الاعتبار لدور العاطفة والوجدان في بلورة التجربة الدينية، دون الانزلاق في حمأة الذاتية المفرطة، عبر التركيز على المحبة في بعدها الأنطولوجي كمظهر أسمى للعطاء المتعالي.

⁷³ Marion, Jean-Luc, In Excess: p.330

ولعل في هذه الدعوة لإعادة اكتشاف معنى المقدس كعطاء وتجليّ، ما يجعل من مساهمة ماريون أداة مفاهيمية قيمة لمساءلة بعض المسلمات الفلسفية والكلامية الموروثة، وتجديد السؤال حول حقيقة الفعل الإلهي وعلاقته بالعالم. وهي مساهمة لا تتشد الحسم النهائي أو البرهنة القاطعة، بقدر ما تحفز على المجازفة الفكرية والانفتاح على ما لا يمكن توقعه أو ضبطه ضمن أي نظام عقلي أو لاهوتي مغلق. وذلك هو، في نهاية المطاف، التحدي الأكبر الذي يطرحه علينا ماريون: أي أن نتعلم كيف نفكر في المجهول والمطلق، دون ادعاء الإحاطة به أو تطويعه لمقاييسنا المعيارية الضيقة.

هذا هو، إذًا، لبُّ ما يمكن أن نخلص إليه بخصوص إشكالية العطية المطلقة والتجلي المشروط في هذا المطلب، والذي يشكل بدوره مدخلاً ضرورياً لاستكشاف التحليل الظاهراتي الأكثر تفصيلاً للتشبع والفائض الحدسي في التجربة الدينية، على النحو الذي سنجده لدى ماريون في المطلب الثاني من هذا المبحث. فلنواصل إذًا المسير في هذا الدرب، ولنر إلى أي آفاق فلسفية جديدة سيقودنا النظر المتأني والدقيق في كيفية ظهور المقدس في عالمنا وفي وعينا.

المطلب الثاني: التشبع والتجلي: ظهور المقدس في العالم

بعد استكشافنا لمفهومي العطية المطلقة والتجلي اللامشروط كأساس لتصور جان-لوك ماريونالظاهراتي للدين، ننقل الآن للنظر عن كثب في كيفية تشكل هذا التجلي الإلهي بالفعل في نطاق التجربة المحسوسة. وهنا يبرز مفهومان محوريان آخران في فكر ماريون، وهما "التشبع" و"الفائض"، كمدخلين لفهم نمط الظهور النوعي للمقدس داخل عالمنا وضمن حدود إدراكنا المتناهي.

في كتابه الهام "المُعطى: نحو ظاهراتية العطاء"، يستهل ماريون تحليله بالتمييز بين نوعين من الظواهر: "الظواهر القصدية" التي تخضع بالكامل لشروط الوعي وتوجهاته المؤسّسة، و"الظواهر المشبعة" التي تتميز بـ"فائض مطلق في الحدس" يجعلها دائماً غير قابلة للاستنفاد من قبل أي أفق للمعنى أو الإدراك. وهذه الأخيرة هي التي تمثل، في نظره، "النموذج الرئيس والمهيمن لكل عطاء، وربما الاسم الأصلي للظاهرة عينها"⁷⁴

ثم يذهب ماريون، في دراسته اللاحقة "في الفائض: دراسات في الظواهر المُشبعة"، إلى تعميق هذا التصور للظاهرة المشبعة عبر سلسلة من التحديدات الدقيقة. فهي أولاً "غير منظورة" لأنها "لا تتدرج تحت أي أفق استباقي للتوقع والانتظار، وإنما تقتحم الإدراك على نحو مباغت تماماً". وهي ثانياً "لا تطاق" لأنها "تتجاوز قدرة الحدس على استيعابها، فتصيب النظر بالعمى". وهي ثالثاً "مطلقة" من حيث "استقلالها عن أي سياق إحالي وعدم ارتهانها لأي شبكة من العلاقات المتبادلة". وهي أخيراً "غير قابلة للنظر" بمعنى "استحالة إخضاعها لتأسيس الأنا أو تحويلها إلى مجرد متعلق قصدي خاضع لسلطته"⁷⁵

وانطلاقاً من هذه الخصائص، يتوصل ماريون إلى تصنيف رباعي لأشكال أو مظاهر التشبع الحدسي، بحسب نمط تجاوزها للمقولات القبلية للفهم. فهناك أولاً الحدث التاريخي "الزائد" عن كل تفسير سببي أو غائي، وهناك ثانياً المعجزة "الخارقة" لنواميس الطبيعة المألوفة، وهناك ثالثاً الوجه الإنساني "المقاوم" لكل تشيؤ أو تملك، وهناك أخيراً الأيقونة الدينية "المتعالية" على حدود التمثل والمحاكاة. لكن الأهم من هذا التصنيف الشكلي، في نظره، هو البعد الديني العميق الذي تشترك فيه جميع هذه الظواهر المشبعة،

⁷⁴ Marion, Jean-Luc, Being Given: p. 199

⁷⁵ Marion, Jean-Luc, In Excess: p. 112.

ألا وهو كونها تحيل بالضرورة، ولو بطرق مختلفة، على "المطلق الإلهي" الذي يتجلى من خلالها"^{٧٦}

وهكذا ينتقل ماريون من التحليل الظاهراتي المجرد للتشبع الحدسي، إلى ربطه بمسألة ظهور المقدس ذاته في صلب عالمنا المعيش. ففي حين اقتصر إدموند هوسرل على وصف التجاوز القصدي ضمن بنية الوعي المتعالي، ودون ربطه بأي تعالٍ للموضوع ذاته، يذهب ماريون إلى اعتبار فائض المعطى دليلاً على "تعالى الظاهرة عينها التي تمتنع عن الاستنفاد في الصور الذهنية... وتحافظ بالتالي على غيابها الجوهرى داخل حضورها الحدسي".^{٧٧} وهو ما ينطبق بشكل مثالي، في نظره، على التجلي الإلهي بوصفه "الظاهرة المشبعة بامتياز... والحدث الكلي الذي يهب ذاته مطلقاً دون أن يُستنفد أبداً بما يُعطى منه"^{٧٨}.

بمعنى آخر، إن ماريون لا يكتفي باستعارة مفهوم التشبع الظاهراتي من سياقه الهوسرلي الأصلي، بل يعيد توظيفه ضمن أفق فلسفي مغاير تماماً، يتمحور حول فكرة العطاء المتعالي والتجلي اللامشروط للمقدس. وهو بذلك ينقلنا من استكشاف شروط الممكن للمعرفة، إلى التساؤل عن إمكان قبول ما يتجاوز هذه الشروط ويتعالى عليها. أو كما يقول في "الله بلا كينونة": "إن ظاهرة الإله لا تقع 'ضمن حدود العقل فحسب'، كما اعتقد إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤)، بل تدفع هذا العقل ذاته إلى حدوده القصوى، حيث لا يعود القصدي وحده يؤسس للمعنى"^{٧٩}

76 Ibid., p. 30.

77 Marion, Jean-Luc, "The Saturated Phenomenon," p. 176

78 Ibid., p. 209.

79 Marion, Jean-Luc, God Without Being: p. 54.

من هنا، يغدو السؤال الجوهرى بالنسبة لماريون هو: كيف يمكن للباحث الظاهراتي أن يتعامل مع الظاهرة المقدسة كـ"معطى مشبع"، دون الانزلاق في مطبات الأنطولوجيا الكلاسيكية التي ترهن المتعالى بشروط الوجود والجوهر؟ أو بعبارة أخرى: كيف يتسنى له الحديث عن "التجلي الإلهي" انطلاقاً من تحليل بنية الخبرة الدينية الحية، من دون تحويل الله إلى مجرد "موضوع" للإدراك أو "كائن" من كائنات العالم؟

الجواب، من وجهة نظر ماريون، يكمن في الالتزام الصارم بـ"مبدأ الظاهرة المشبعة"، أي الانطلاق من "المعطى الزائد ذاته كما يتجلى للوعي، دون إرجاعه إلى أي سند ترنسندنتالي خارجي"⁸⁰. وهو ما يعني، بحسب تعبيره، "تعلق كل تأسيس أنطولوجي مسبق للظاهرة... والاكتفاء باستقبال عطائها الوافر والاستجابة لندائها المتسامي"⁸¹. ففي الظاهرة المشبعة، يشدد ماريون، "لا يتعلق الأمر بالتعرف على موضوع مألوف انطلاقاً من أفق انتظار معين، بل بقبول المجهول المطلق الذي يقترح أفقنا ويعيد تشكيله من جذوره"⁸²

وتجدر الإشارة هنا إلى التقاطع اللافت بين هذه الرؤية الماريونية وتحليلات إيمانويل ليفيناس (1906-1995) حول "فكرة اللامتناهي". ففي كتابه "الكلية واللامتناهي"، يؤكد ليفيناس أن اللامتناهي "لا يظهر كموضوع، ولا حتى كآخر مقابل للذات، بل كأثر يتجاوز كل تمثل ويقاوم كل إدراك"⁸³ ومع ذلك، فهو ليس مجرد تصور سلبي أو مثال مجرد، بل يتجلى بالفعل من خلال "وجه الغير" الإنساني الذي يتعالى على الصورة ويتمنع عن الحياة. غير أن ماريون، رغم استفادته من هذه الأفكار

80 Marion, Jean-Luc, Being Given, p. 216.

81 Marion, Jean-Luc, The Visible and the Revealed, p. 122.

82 Marion, Jean-Luc, In Excess, p. 39.

83 Emmanuel Lévinas, Totality and Infinity: An Essay on Exteriority, trans. Alphonso Lingis (Dordrecht: Kluwer Academic, 1991), p. 41.

الليفيناسية، يوظفها في سياق مغاير يتعلق بانكشاف المطلق المتعالي عينه، لا بمجرد الغيرية الأخلاقية للوجه البشري.

في المقابل، يمكن أيضاً رصد بعض أوجه الاختلاف بين موقف ماريون وطروحات مارتن هايدجر (١٨٨٩-١٩٧٦) المتأخرة حول "حدث الانكشاف". صحيح أن كلا المفكرين ينطلق من نقد التمرکز الذاتي للوعي وسعي لاستعادة أولوية "العطاء" على كل تموضع للذات، لكن في حين يبقى هايدجر هذا العطاء مرتبباً بحركة "انفتاح الوجود" ذاته، يربطه ماريون بتجلٍ صريح للمطلق الإلهي المتسامي حتى على كينونة الوجود^{٨٤} وهو ما قد يفسر تحفظ الأول تجاه أي خطاب إيجابي عن المقدس، واندفاع الثاني لاستكشاف إمكانات هذا الخطاب بلا هوادة.

لكن السؤال الأهم الذي تثيره مقارنة ماريون، ويعترف هو نفسه بوطأته، هو: ألا يظل مفهوم "التشبع الحدسي"، رغم كل شيء، نابعاً من بنية الوعي ذاته، وبالتالي عاجزاً عن الإفلات من أسر الذاتية الترنسندنتالية؟ وكيف يمكن للمرء أن يتحدث عن "معطى مطلق" من دون الوقوع ضمناً في تناقض المصطلح بين ما "يُعطى" وبين ما "يتلقى"؟ بتعبير آخر، كيف يتصور ماريون الانتقال من استقلالية الظاهرة المشبعة إلى القول بمصدر متعالٍ لها؟^{٨٥}

من وجهة نظر ماريون، تكمن الإجابة في تبني منظور أكثر جذرية في نقد الذات وكشف حدودها. ذلك أنه، كما يجادل في "المُعطى: نحو ظاهراتية العطاء"، "كلما تأملنا بعمق أكبر في حقيقة التشبع الحدسي، أدركنا بوضوح متزايد أن الأنا ليست هي مصدره

⁸⁴ Martin Heidegger, "On the Essence of Truth," in Basic Writings, ed. David Farrell Krell (San Francisco: Harper San Francisco, 1993), p. 115.

⁸⁵ Dominique Janicaud, "The Theological Turn of French Phenomenology," in Phenomenology and the "Theological Turn", p. 92.

ولا صاحبة الكلمة الأخيرة في تقريره، فالذات، أمام الظاهرة المشبعة، تكتشف أنها مجرد متلقٍ سلبي، بل إنها ذاتها تتأسس كذات من خلال استقبالها لهذه الظاهرة التي تسبقها⁸⁶ وبناءً عليه، فإن التسليم بالتعالى المطلق، بعيداً عن كونه تناقضاً منطقياً، يمثل الاستنتاج الضروري لمن يمضي بنقد الكوجيتو إلى نهايته القصوى.

وبهذا المعنى، تتجلى لنا الصلة الوثيقة بين ظاهرة التشبع والتحول في تصور الذاتية عند ماريون. فالأولى، بما تنطوي عليه من وفرة تتخطى كل استيعاب، لا تفضي فقط إلى زعزعة مركزية الوعي المتعالى، بل هي تدفع أيضاً لإعادة تعريف الذات ككينونة "مستقبلة" و"شاهدة" تستمد وجودها من استجابتها لنداء ما يتجاوزها. وهو ما عبر عنه ماريون بالقول: "الذات، في مواجهة المشبع، تخسر سيادتها وتصير شاهداً لما يتعالى عليها"⁸⁷.

ولا يعني هذا، على أي حال، إلغاء الدور الإيجابي والحيوي للذات في التجربة الدينية. بل على العكس، فكما يوضح ماريون في "في الفائض: دراسات في الظواهر المشبعة"، فإن استقبال التجلي الإلهي يتطلب بالأحرى "أقصى درجات اليقظة والانتباه والتفتح الباطني من لدن الذات"⁸⁸. فهو لا يلغي حرمتها، بل يحررها من أسر الأنانية ومن وهم الاستقلال الذاتي المطلق. وهو لا يقضي على فاعليتها، بل يمنحها على العكس "القدرة الخلاقة على الشهادة لما يتجاوزها والاستجابة لندائه"⁸⁹.

وهنا تبرز أهمية مفهوم "الاستجابة" في ظاهراتية ماريون، كحل توفيقى بين تلقائية العطاء المطلق من جهة، وضرورة تفعيل الذات واندراجها الطوعي فيه من جهة أخرى.

⁸⁶ Marion, Jean-Luc, Being Given, p. 267.

⁸⁷ Marion, Jean-Luc, In Excess, p. 38.

⁸⁸] Ibid., p. 70.

⁸⁹ Ibid., p. 169.

ففي كتاب "المُعطى: نحو ظاهراتية العطاء"، يعتبر أن الاستجابة "ليست رد فعل آلي على فعل سابق، بل هي حدث أصيل للمعنى ينبثق عن حرية الذات في الإصغاء للنداء وتلبيته".^{٩٠} لكنها في الوقت ذاته، كما يضيف في "في الفائض"، "لا تنشأ من الذات كفاعل مطلق، وإنما تعبر عن استعدادها للسماح لما يتجاوزها بالعمل من خلالها".^{٩١}

وما يؤكد هذا البعد الاستجابي للتجربة الدينية، في نظر ماريون، هو مركزية "الصلاة" و"العبادة" كتعبيرين أساسيين عنها. ففي مقالته "الممكن والوحي"، يذهب إلى اعتبارهما "النموذجين الأسميين للقبول الحر والواعي لتجلي المطلق في حياة الإنسان".⁹² فالصلاة، كما يقول، ليست مجرد طلب أو استجداء، بل هي في العمق "حالة وجودية كاملة تتطوي على تعليق الأحكام المسبقة والتسليم الطوعي لمشيئة الله"^{٩٣} وهي، من هذه الزاوية، استعداد كلي لتقبل ما لا يمكن توقعه أو السيطرة عليه، وشهادة حية على أولوية المبادرة الإلهية في كل علاقة بين الإنسان والمقدس.

لكن هذا التركيز على بُعد الاستقبال والاستجابة في التدين، مهما بلغت كثافته الظاهراتية، لا يخلو بدوره من طرح تحديات فلسفية جوهرية. فمن ناحية، قد يتساءل المرء عن مدى اتساقه مع الحرية الذاتية للإنسان وقدرته على تقرير مصيره. أليس القول بأولوية مطلقة للعطاء الإلهي ينتقص ضمناً من استقلالية الإرادة البشرية؟ ومن ناحية أخرى، ألا ينطوي على خطر الغنوصية أو الحدسية المفرطة التي تعطي الأفضلية للكشف الباطني على حساب الوساطات العقلية والتاريخية؟

90 Marion, Jean-Luc, Being Given, p. 283

91 Marion, Jean-Luc, In Excess, p. 46.

92 Marion, Jean-Luc, " The Visible and the Revealed, p. 1.

Ibid. p. 1.

أسئلة حرجة لا شك، يعترف ماريون نفسه بوجاهتها، لكنه لا يرى فيها بالضرورة نقضاً لموقفه، بقدر ما هي حافز لتعميقه وتثقيحه. فكما يوضح في "الله بلا كينونة"، فإن "الأولوية الأنطولوجية للعطاء الإلهي لا تنفي الحرية الإنسانية، بل هي شرط إمكانها، ذلك أن قبول العطية المطلقة أو رفضها يظل رهناً بالقرار الذاتي الحر، وإن كان هذا القرار ذاته لا ينبثق إلا انطلاقاً من حدث العطاء السابق عليه"^{٩٤}. وهكذا تتبدى الجدلية الخصبة بين سبق النعمة الإلهية وضرورة الموافقة البشرية، في صميم كل تجربة إيمانية حقة.

أما بخصوص شبهة الغنوصية، فينفيها ماريون جملةً، مشيراً إلى أن "التجلي المشبع، رغم فرادته، لا يقتصر البتة على بُعد الحديسي أو الباطني، بل يشمل أيضاً آثاره الملموسة في عالم الفعل والقيم والعلاقات الاجتماعية"^{٩٥} ذلك أن الاستجابة الأصلية للنداء الإلهي، في نظره، لا تكنفي "بالاستبطان الذاتي، بل تقتضي كذلك التجسيد العياني والانخراط في مجرى الحياة بمختلف تجلياتها"^{٩٦}. وهو ما يستدعي، بالضرورة، الانفتاح على الوسائط التاريخية والثقافية المختلفة التي يتخذها الوحي في سياقات بشرية محددة.

وبالتالي، فإن التأمل في ظاهرتي التشبع والتجلي لا ينفصل لدى ماريون عن استكشاف تبعاتهما العملية والوجودية على حياة الإنسان المؤمن. فكما يختم في "في الفائض"، "إذا كان القبول الحر للعطاء المطلق يُغني الذات ويُخصبها، فذلك لأنه يدفعها للانخراط في حركة العطاء ذاتها وفي منطق الكرم اللامشروط الذي يحكمها، والشاهد

⁹⁴ Marion, Jean-Luc, *God Without Being*, p. xxiv.

⁹⁵ Marion, Jean-Luc, *In Excess*, p. 70.

⁹⁶ *Ibid.*, p. 47.

الحقيقي للتجلي الإلهي، بهذا المعنى، هو من يعكس وهجه في سلوكه وقيمه، ومن ينقل فيضه الفائض للآخرين"^{٩٧}

هذه الرؤية تشبه كلمات القديس أوغسطين في "اعترافاته"، وهو يخاطب الله: "متأخراً أحببتك، يا جمالاً قديماً متجدداً، متأخراً أحببتك! كنت معي، ولم أكن معك. كانت تمسكني بعيداً عنك تلك الأشياء التي لو لم تكن فيك لما كانت موجودة.. ناديت وصرخت وقهرت صممي. تالأأت ولمعت فبددت عماي"^{٩٨} وكأنه يعبر، بلغة شاعرية صوفية سابقة لكل فلسفة وعلم، عما عناه ماريون لاحقاً بـ"التشبع الحدسي الفائق" و"التجلي اللامشروط"، وعن ضرورة "تحرر" الذات و"يقظتها" كي تتمكن من تلقيهما.

المطلب الثالث: اللامرئي والمتعالى: تجاوز حدود الظاهرية

بعد استعراضنا لمفهوم التشبع والتجلي كمدخلين أساسيين لتحليل ظهور المقدس في فينومينولوجيا ماريون، ننتقل الآن لاستكشاف بُعدين آخرين لا يقلان أهمية في تشكيل رؤيته، وهما "اللامرئي" و"المتعالى". فكيف يتم تناول هذين البُعدين في أعماله؟ وإلى أي مدى يُعيد انبثاقهما في صلب التحليل الظاهراتي النظر في الحدود الكلاسيكية للمنهج الفينومينولوجي ذاته؟

يستهل ماريون معالجته لهذه المسألة، بالتأكيد على أن "التجلي الإلهي، مهما بلغ قوته وغناه، يتضمن دائماً جانباً يتعذر إظهاره أو استفادته بالكامل في المرئي، .. وهذا جانب سلبي بالضرورة يحافظ على امتناعه الجوهرى وسط كل إمكانات الكشف والإدراك"^{٩٩} وهذا "اللامرئي"، كما يضيف، "لا ينفصل عن نسيج الظهور ذاته، بل يقيم

⁹⁷ Ibid., p. 162.

⁹⁸ Saint Augustine, Confessions, trans. Maria Boulding (New York: New City Press, 1997), p. 227.

⁹⁹ Marion, Jean-Luc, The Visible and the Revealed, p. 18.

في صميمه كوجه الآخر الذي لا غنى عنه، والذي يضمن بقاء فجوة أنطولوجية دائمة بين ما يُعطى وما يُحجب في التجلي".¹⁰⁰

ورغم ما قد يوحي به هذا الطرح من تنزيه سلبي، إلا أن ماريون يشدد على أن اللامرئي في العطاء الإلهي ليس "عدماً" خالصاً ولا نفيّاً محضاً، بل هو على العكس شرط إيجابي لإمكان التجلي ذاته. ففي دراسته "الصنم والمسافة"، يعتبر أن "المقدس لا يظهر حقاً إلا من حيث يتوارى، أي من حيث يحافظ على مسافة لا تُردم بينه وبين ما يظهر منه".¹⁰¹ وهذه المسافة أو الفجوة، بدورها، ليست استحالة للعلاقة، بل هي التي تخلق المجال الضروري لحرية الاستجابة البشرية وتمنع تحولها إلى ضرورة قهرية أو يقين مطلق.

وبالتالي، فإن جدلية "الظهور والاحتجاب" أو "الكشف والستر" تغدو، بحسب ماريون، مفتاحاً أساسياً لفهم سر التجلي الديني برمته. وهو ما يتجلى، على وجه الخصوص، في تحليله لوظيفة الأيقونة المقدسة. فكما يقول في "الله بلا كينونة": "الأيقونة ليست نافذة شفاقة على المطلق ولا انعكاساً مرآوياً له، بل هي، مرئي يحضر اللامرئي من حيث هو لامرئي، أي يجعله يلوح في عتمته المتعالية ذاتها"¹⁰². فمفارقة الأيقونة، إذن، أنها "لا تستحضر المقدس إلا بقدر ما تصونه، ولا تقربه إلينا إلا بقدر ما تُبقي بعده سراً لا يُستبطن"¹⁰³

وبشكل أكثر جذرية إزاء هذه المسألة، يتدخل مفهوم "المتعالي" ليعمق المفارقة وصولاً إلى أقصاها. ففي "الصنم والمسافة"، يذهب ماريون إلى حد اعتبار أن "الله، بما

¹⁰⁰ Ibid., p. 27.

¹⁰¹ ¹⁰¹ Marion, Jean-Luc, The Idol and Distance: p. 104.

¹⁰² Marion, Jean-Luc, God Without Being: p. 18.

¹⁰³ Ibid., p. 24.

هو إله، لا ينتمي إلى نظام الوجود ككل، بل يتجاوزه بإطلاق لا يترك مجالاً لأي تحديد سلبي أو إيجابي لكيونته"^{١٠٤}. فمتعالیه، بعبارة أخرى، لا ينحصر في مجرد تنزيه أنطولوجي يجعل منه "موجوداً أسمى"، بل يعني انفكاكه الجذري عن شرط الوجود ذاته ليكون "عطاء محضاً" قبلياً على كل تمييز بين الكائن واللاکائن.

إلا أن هذا التعالي اللاوجودي المطلق لا يحكم، من وجهة نظر ماريون، على كل صلة ممكنة بين الإنسان والإله. ذلك أنه، وكما يوضح في "الله بلا كينونة"، "يتيح بالأحرى تصور إمكان حضور الله في صلب الدنيوي والمتناهي، من دون اختزال لتعالیه في أي تعين خاص أو تقييد له في أي صورة محددة"^{١٠٥} فالمطلق، بتعبير آخر، لا يحتاج سلباً وجودياً يتدرج فيه حتى يلتقي بالنسبي، بل يتجلى فيه مباشرة عبر "فعل العطاء" الخالص الذي لا تحده شروط ولا تستغده مظاهر.

لكن كيف يمكن بالضبط للمحدود البشري، إذن، أن يتلقى هذا العطاء المطلق؟ وأي موقف وجودي يتعين عليه تنبيهه كي يفتح عليه دون أن يدعي احتواءه؟ في "المُعطى"، يجيب ماريون بأن "استقبال المتعالي لا يتم عبر الفهم أو المعرفة بالمعنى التقليدي، بل عبر الإصغاء القصوى للنداء الصامت الآتي من ذاك البعد اللامرئي الذي لا تدركه العين"^{١٠٦}. وهذا الإصغاء، كما يشرح، هو "فعل وجودي كلي يتطلب الانفتاح الشامل للذات وتعليق كل مشاريعها المسبقة، حتى تتمكن من تلقي ما يتجاوزها على نحو جذري"^{١٠٧}.

¹⁰⁴ Marion, Jean-Luc, The Idol and Distance, p. 98.

¹⁰⁵ Marion, Jean-Luc, God Without Being, p. 46.

¹⁰⁶ Marion, Jean-Luc, Being Given: p. 234

¹⁰⁷ Ibid., p. 245.

ومن ثم، فالتحدي الذي يطرحه التعالي الإلهي على الإنسان، وفقاً لماريون، ليس تحدياً معرفياً بالدرجة الأولى، بل هو تحدٍ أخلاقي ووجودي بامتياز. إنه يتطلب، قبل كل شيء، شجاعة التخلي عن إرادة السيطرة والتحكم، والرضوخ الطوعي لمبادرة المطلق الذي يهب ذاته دون قيد أو شرط. وهو ما يستدعي، بحسب تعبيره، "ميتافيزيقا سلبية جديدة لا تكفي بنفي صفات محددة عن الله، بل تسعى إلى نفي كل الصفات والتحديدات الممكنة، انطلاقاً من حدس أولي لتعالیه المطلق الذي يتقدم على كل ماهية وعلى الوجود ذاته"¹⁰⁸

وهنا تتضح الخطوة الجزرية التي يقترحها ماريون، والتي لا تقتصر على تجاوز الأنطولوجيا التقليدية فحسب، بل تمتد لتشمل حتى المنهج الفينومينولوجي الكلاسيكي ذاته. ففي حين اكتفى هوسرل، مثلاً، "بوضع الوجود الواقعي للعالم بين قوسين انطلاقاً من فكرة الأنا المتعالي"، يذهب ماريون إلى "تعليق فكرة الأنا ذاتها لصالح أولوية المُعطى المطلق الذي يسبق كل وعي ويؤسسه"¹⁰⁹. الأمر الذي يستتبع ضرورة إعادة النظر جذرياً في مبدأ القصدية الظاهرانية، بحيث لم تعد الظاهرة "متعلقاً ذهنياً خاضعاً لتوجهات الوعي، بل حدثاً أصلياً للمعنى ينبثق كعطاء نقي يتجاوز كل استباق"¹¹⁰.

وفي هذا المضمار، تحديداً، يكتسب الحديث عن "اللامرئي" و"المتعالي" بعده الفينومينولوجي المتميز عند ماريون. فهما، من جهة، يحيلان على ما لا يمكن اختزاله إلى الحضور المتعین أو الماهية المحددة، ومن ثم يتيحان الانفتاح على "فائض" دائم في الظاهرة يمنع انغلاقها أو استفادها. لكنهما، من جهة أخرى، لا ينفصلان عن تجلياتهما

¹⁰⁸ Marion, Jean-Luc, In Excess: p. 161.

¹⁰⁹ Marion, Jean-Luc, Reduction and Givenness: p. 203.

¹¹⁰ Ibid., p. 186.

الفعلية في مجال الخبرة المعيشة، ولا يحولان المطلق إلى كيان منفصل عن الظهور، بل يجعلان حضوره في الحياة أمراً ممكناً دون أن يلغيا في الوقت ذاته بُعد المتجاوز لها.

وبهذا المعنى، فإن الإصرار على التعالي السلبي والتنزيه المطلق عند ماريون لا يؤدي إلى عزل المقدس عن الواقع، بل يتيح إدراك حضوره الدينامي في عالم الشهادة عبر تجلياته المتجددة. فالمتعالي والمتعین، والمحيث والمفارق، يلتقيان بشكل خلاق دون ذوبان أحدهما في الآخر، بل يتواصلان عبر حركة العطاء والاستقبال المتبادلة.

غير أن هذه المقاربة لا تخلو من إشكالات منهجية ولاهوتية. فمنهجياً، يُثار التساؤل حول شرعية الانتقال من "اللامرئي الظاهراتي" إلى "المتعالي المطلق"، وكيفية الحفاظ على صرامة الفينومينولوجيا مع نفي "الموضوعية" و"القصدية". ولاهوتياً، تُطرح أسئلة حول تصور الله خارج دائرة الكينونة، وإمكانية تحديد طبعة "العطاء المحض" وتمييز تجلياته الأصلية.

ومع ذلك، تبقى أفكار ماريون عن اللامرئي والمتعالي إسهاماً مهماً في تجديد مقاربة الظاهرة الدينية. فهو يسعى لشق طريق وسط بين الحلول المطلق والتنزيه الكامل، داعياً لتجاوز ثنائية الظاهر والباطن نحو فهم المعنى الديني كحدث متوتر بين الكشف والحجب، يجعل من الاختلاف منبعاً للدلالة.

المبحث الثالث: الأيقونة والوجه: تجليات المقدس وتحدي الفهم

الفينومينولوجي عند ماريون

المطلب الأول: فينومينولوجيا الأيقونة والتجلي الجمالي

تمثل فينومينولوجيا العطية والتجلي محور الإسهام الفلسفي الأصيل لجان لوك ماريون في مجال فلسفة الدين. فهي تشكل نقطة تحول حاسمة في مساره الفكري، حيث ينتقل من الاهتمام بشروط إمكان المعرفة في الذات والوجود، إلى التساؤل الجذري عن إمكانية "تجلي المطلق" خارج الأطر الأنطولوجية والميتافيزيقية التقليدية.

في قلب هذا التحول الفكري، يبرز مفهوم العطاء كمحور أساسي في فلسفة ماريون. هذا المفهوم لا يمثل مجرد إضافة إلى المعجم الفلسفي التقليدي، بل يشكل نقطة ارتكاز جديدة تمكن ماريون من إعادة صياغة الأسئلة الفلسفية الأساسية حول الوجود والمعرفة والتجربة الدينية.

يسعى ماريون من خلال مفهوم العطاء إلى تجاوز الثنائيات الكلاسيكية بين الذات والموضوع، وبين الوجود والماهية، التي هيمنت على الفكر الفلسفي الغربي لقرون. بدلاً من ذلك، يقترح منظوراً جديداً يرى فيه الظواهر، بما فيها الظاهرة الدينية، كـ"معطيات" تسبق وتتجاوز كل تأسيس ذاتي أو موضوعي.

هذا الانتقال نحو العطاء يمثل محاولة جريئة لتحرير الفكر الفلسفي من قيود الميتافيزيقا التقليدية، وفتح آفاق جديدة لفهم العلاقة بين الإنسان والعالم والمطلق. فكيف يعرّف ماريون هذا العطاء، وما هي خصائصه الأساسية؟

١. مفهوم العطاء عند ماريون

يعرف ماريون العطاء المحض (pure givenness) بأنه الأساس الأول لكل ظهور وتجلي. فهو يتقدم على كل تحديد وجودي أو ماهوي، ويشكل الشرط الإمكاناني لكل معرفة وخبرة. يقول ماريون: "العطاء لا يفترض أي أساس أو علة خارج ذاته، بل هو الذي يؤسس إمكانانية كل ظاهرة وكل معنى" ^{١١١}

وبهذا المفهوم، ينتقد ماريون التصورات التقليدية للوجود والماهية، معتبراً أنها تقيد المطلق في حدود ضيقة وتحجب غناه اللامتناهي. يكتب: "الله لا يحتاج أن 'يكون' أو 'لا يكون' حتى يهب ذاته للعالم ويتجلي فيه، لأنه يتقدم أصلاً على كل وجود وعدم، بوصفه عطاءً محضاً" ^{١١٢}

هنا نلاحظ اختلافاً جوهرياً بين مفهوم العطاء عند ماريون والتصورات الكلاسيكية للوجود في الفلسفة الغربية. فبينما يركز الفكر الأنطولوجي التقليدي على "الكينونة" كأساس للحقيقة، يقترح ماريون تجاوز هذا الإطار كلياً لصالح فكرة العطاء السابقة على كل وجود.

انطلاقاً من هذا الفهم الجديد للعطاء، يتعين علينا الآن استكشاف كيفية ارتباطه بمفهوم التجلي، وتأثيره على فهمنا للعلاقة بين المطلق والعالم.

٢. العلاقة بين العطاء والتجلي

يرى ماريون أن التجلي هو في جوهره حدث العطاء (event of givenness). فالظاهرة لا تنبثق من ذاتها ولا من الوعي المدرك لها، بل من فعل العطاء المحض الذي

¹¹¹ Marion, Jean-Luc. Being Given: p. 5.

¹¹² Marion, Jean-Luc. God Without Being: p. 45.

يسبقها ويتيح لها أصلاً أن تظهر وتُدرك. وهذا يستلزم تحولاً جذرياً في فهم دور الذات، من الفاعلية القصدية إلى الاستقبالية (receptivity) الأساسية¹¹³

ويشدد ماريون على أن هذا العطاء لا يعني حضوراً تاماً للمعنى، بل ينطوي دائماً على جدلية الظهور والاحتجاب. فكما يقول: "المطلق، حين يعطي ذاته، لا يستنفد في عطائه، بل يحافظ على تعاليه وسره في قلب تجليه"¹¹⁴

في هذه المسألة، يمكننا ملاحظة تقارب بين فكر ماريون وبعض التيارات في الفلسفة الوجودية والتفكيكية. فمثلاً، نجد صدى لفكرة "الانكشاف والاحتجاب" التي طورها هايدجر في تحليلاته للحقيقة، يقول هايدجر في مقالته "في ماهية الحقيقة":

"إن الانكشاف للموجود لا يقضي أبداً على الاحتجاب للموجود في كليته. بل على العكس: فالانكشاف للموجود الفردي يحدث في الآن ذاته كاحتجاب للموجود في كليته... الحقيقة في ماهيتها هي اللا-حقيقة"¹¹⁵

كما أن التأكيد على "الغياب" كجزء أساسي من التجلي يقترب من مفهوم "الاختلاف" عند دريدا، لاسيما في مقولته أن "ما يجعل المعنى ممكناً هو الاختلاف الدائم. فكل عنصر 'حاضر' في اللغة يحمل في طياته آثاراً لما سبقه وإشارات لما سيأتي بعده. وهكذا، فإن المعنى لا يكتمل أبداً في لحظة واحدة، بل هو دائماً في حالة تأجيل وانتشار"¹¹⁶

¹¹³ Marion, Jean-Luc. Reduction and Givenness: p. 203.

¹¹⁴ Marion, Jean-Luc. The Visible and the Revealed., p. 24.

¹¹⁵ Heidegger, Martin. "On the Essence of Truth." In Basic Writings, edited by David Farrell Krell. New York: Harper Collins, 1993, p. 130

¹¹⁶ Derrida, Jacques. Writing and Difference. Translated by Alan Bass. Chicago: University of Chicago Press, 1978, p. 13.

هذا الفهم العميق للعلاقة بين العطاء والتجلي يقودنا بالضرورة إلى التساؤل عن الكيفية التي يتجلى بها المطلق في العالم. وهنا يبرز دور مفهوم "الظاهرة المشبعة" الذي يعتبره ماريون نموذجاً أعلى للعطاء.

٣. الظاهرة المشبعة كنموذج للعطاء

يقدم ماريون مفهوم "الظاهرة المشبعة" (saturated phenomenon) كنموذج أعلى للعطاء. وهي ظاهرة تتميز بـ"فائض مطلق في الحدس" يجعلها دائماً غير قابلة للاستنفاد من قبل أي أفق للمعنى أو الإدراك " ١١٧

يحدد ماريون أربعة أنواع رئيسية للظواهر المشبعة: الحدث التاريخي، اللوحة الفنية، الجسد الحي، والأيقونة الدينية. وكلها تشترك في كونها "تطغى على قدرة الوعي على الاستيعاب، وتخترق كل الأطر المفاهيمية المسبقة" ١١٨

هنا نجد تشابهاً مثيراً بين مفهوم الظاهرة المشبعة عند ماريون وبعض المفاهيم في الفكر الصوفي الإسلامي. فمثلاً، يمكن مقارنة فكرة "الفيض" في فلسفة ابن عربي " فالحق سبحانه أوجد الخلق عن كرم وجود لا عن علة، وما فتح عين موجود قط إلا والحق متجلٍ له فيها بقدر ما تعطيه حقيقة ذلك الموجود، فجميع الموجودات مظاهر للحق ١١٩ " "

هذا الفيض الإلهي الذي يتجلى في كل الموجودات يتقارب مع مفهوم "الفائض الحدسي" عند ماريون، والذي يصفه قائلاً:

¹¹⁷ Marion, Jean-Luc. In Excess: p. 112.

¹¹⁸ Ibid., p. 159.

¹¹⁹ ابن عربي، محيي الدين. الفتوحات المكية. تحقيق عثمان يحيى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ١٩٨٥، ج٢، ص ٣٩٥

"الظاهرة المشبعة تتميز بفائض في الحدس يتجاوز كل مفهوم أو قصد. إنها تعطي أكثر مما يمكن للوعي استيعابه أو احتواؤه، وبذلك تكشف عن تعالٍ يتجاوز قدرتنا على الفهم والتمثيل".^{١٢٠}

إن كلا المفهومين عند ابن عربي وماريون يشيران إلى تجلٍ إلهي أو معنى يفيض على قدرة العقل البشري على الاستيعاب الكامل، مؤكداً على الطبيعة المتجاوزة للتجربة الدينية أو الظاهرة المقدسة..

إن هذا الفهم العميق للظاهرة المشبعة يفتح الباب واسعاً أمام إعادة النظر في فهمنا للظاهرة الدينية بشكل خاص، ويدعونا لاستكشاف كيف يغير هذا المفهوم من نظرتنا للعلاقة بين الإنسان والمقدس.

٤. أهمية العطاء في فهم الظاهرة الدينية

يقدم ماريون مفهوم "العطاء المحض" كأساس لفهم جديد وعميق للتجربة الدينية. هذا المفهوم يتجاوز الأطر التقليدية للتفكير في المقدس، خاصة تلك القائمة على فكرة "الكينونة" أو الوجود. يقول ماريون:

"العطاء المحض يسبق كل وجود وكل ماهية. إنه ليس 'شيئاً' يمكن تحديده أو تعريفه، بل هو الشرط الأساسي لكل ظهور وكل معنى".^{١٢١}

هذا الطرح يمثل نقداً جذرياً للأنطولوجيا التقليدية التي تفهم الله كـ"موجود أسمى". ومثالاً لهذا الفهم التقليدي في نجده في الخلاصة اللاهوتية عند توما الإكويني، حيث يذهب إلى أنه: "يجب القول بأن وجود الله يمكن إثباته بخمسة طرق... الطريق الخامس

¹²⁰ Marion, Jean-Luc. In Excess: p. 112

¹²¹ Marion, Jean-Luc. Being Given: p. 5.

مأخوذة من تدبير الأشياء. فإننا نرى أن بعض الأشياء التي لا عقل لها كالأجسام الطبيعية تفعل لغاية... وهذا لا يمكن أن يكون إلا من موجد عاقل نسميه الله. " ١٢٢

يرى ماريون أن هذا الفهم يقيد المقدس ضمن حدود الفكر البشري. بدلاً من ذلك، يدعو إلى إعادة تأسيس العلاقة بين الإنسان والمقدس على أساس الانفتاح على العطاء المتعالي والاستجابة له. فيقول:

"العلاقة مع المقدس لا تقوم على المعرفة أو الإثبات، بل على الاستقبال والاستجابة لما يتجاوز قدرتنا على الفهم والتصور" ١٢٣

هذا الموقف يقترب من التيار (السلبى) في اللاهوت المسيحي. نجد مثلاً لهذا في كتابات القديس يوحنا الدمشقي في مقولته "إن الله غير محدود وغير قابل للإدراك، والشئ الوحيد القابل للإدراك فيه هو عدم قابليته للإدراك" ١٢٤

كذلك نجد صدى لهذا الموقف في الفكر الإسلامي، في مفهوم "التنزيه" عند المعتزلة. لا سيما في مقولة القاضي عبد الجبار: "إن الله تعالى منزه عن كل ما يمكن أن يخطر ببال البشر أو يدركه عقلهم" ١٢٥

١٢٢ لأكويني، توما. الخلاصة اللاهوتية. ترجمة الخوري بولس عواد. بيروت: المطبعة الأدبية، ١٨٨٧، ج١، ص ١٣-١٤

Marion, Jean-Luc., God Without Being, p. 53

¹²⁴ St. John of Damascus. "Exposition of the Orthodox Faith." Translated by S.D.F. Salmond. In Nicene and Post-Nicene Fathers, Second Series, Vol. 9, edited by Philip Schaff and Henry Wace, 1-101. Buffalo, NY: Christian Literature Publishing Co., 1899.

١٢٥ عبد الجبار، القاضي. المغني في أبواب التوحيد والعدل. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥، ج٥، ص ٢٣٢

رغم الإمكانيات الكبيرة التي يفتحها مفهوم العطاء لفهم الظاهرة الدينية، إلا أنه يواجه تحديات عديدة. أحد هذه التحديات هو كيفية الحديث عن المقدس دون الوقوع في التناقض. يشير الفيلسوف دومينيك جانيكو (1937-2002)^{١٢٦} إلى هذه الإشكالية: "كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن ما هو 'خارج الكينونة' دون أن يفترض مسبقاً نوعاً من الوجود لهذا 'الخارج'؟" ^{١٢٧}

هذه التحديات، رغم صعوبتها، تفتح آفاقاً جديدة للتفكير الفلسفي والديني. إنها تدعونا لإعادة النظر في أسس فهمنا للمقدس وعلاقتنا به، متجاوزين الأطر التقليدية نحو فهم أكثر انفتاحاً وديناميكية للتجربة الدينية.

لذلك يرى ماريون في هذه التحديات فرصة لتوسيع آفاق التفكير الفلسفي والديني. فهو يدعو إلى "تعلم لغة جديدة" للحديث عن المقدس، لغة تتجاوز ثنائيات الذات والموضوع، الحضور والغياب، وتفتح على غنى التجربة الدينية في تعاليها وتجذرهما معاً.^{١٢٨}

وختاماً لهذا المطالب نجد أن فينومينولوجيا العطاء والتجلي، كما يتجلى في فكر ماريون، تمثل تحولاً جذرياً في الفهم الفلسفي للدين والتجربة الدينية. فهي لا تكتفي بمجرد

^{١٢٦} فيلسوف فرنسي معاصر، اشتهر بنقده للتوجه اللاهوتي في الفينومينولوجيا الفرنسية المعاصرة. كان أستاذاً للفلسفة في جامعة نيس صوفيا أنتيبوليس، وقدم إسهامات مهمة في مجال تاريخ الفلسفة وفلسفة التكنولوجيا. من أشهر أعماله كتاب "المنعطف اللاهوتي للفينومينولوجيا الفرنسية" الذي ناقش فيه أعمال فلاسفة مثل ليفيناس وماريون .

¹²⁷ Janicaud, Dominique. Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate. New York: Fordham University Press, 2000, p. 68.

¹²⁸ Marion, Jean-Luc., God Without Being.p.53

تجاوز الأطر المفاهيمية التقليدية، بل تسعى إلى إعادة تأسيس العلاقة بين الفكر والإيمان على أسس جديدة تماماً.

في هذا المسعى، يقدم ماريون رؤية فلسفية تتميز بعمقها وجرأتها، حيث يتجاوز ثنائية الذات والموضوع التي هيمنت على الفكر الغربي لقرون، ليقتراح منظوراً يرى في "العطاء" و"التجلي" أساساً أولياً لكل خبرة وكل معرفة. هذا التحول الاستمولوجي والأنطولوجي العميق يفتح آفاقاً غير مسبوقة للتفكير في المطلق وعلاقته بالمتناهي، متجاوزاً بذلك حدود الميتافيزيقا التقليدية ومحدودية المقاربات العقلانية الصرفة للظاهرة الدينية.

إن أصالة مشروع ماريون تكمن في قدرته على الجمع بين التراث الفلسفي واللاهوتي الغني وبين التحديات الفكرية المعاصرة، مقدماً صياغة جديدة ومبتكرة تستجيب لأسئلة العصر حول إمكانية الإيمان في عالم ما بعد الميتافيزيقا. وبهذا، فإن فينومينولوجيا العطاء والتجلي لا تقدم فقط فهماً جديداً للدين، بل تعيد تشكيل الفهم الفلسفي ذاته، فاتحة المجال لحوار أعمق وأكثر ثراءً بين الفلسفة واللاهوت في القرن الحادي والعشرين.

المطلب الثاني: فينومينولوجيا الوجه والتجلي الأخلاقي

يمثل مفهوم "الوجه" ركيزة أساسية في فينومينولوجيا جان-لوك ماريون، باعتباره تجلياً فريداً للتشبع الظاهراتي للمقدس. في مؤلفه "الاختزال والعطاء"، يرسم ماريون خطأً فاصلاً بين الوجه و"الرأس" في معناه التشريحي:

"الرأس يندرج ضمن نظام الجسد ككل ويخضع لنواميسه الفيزيائية والعضوية، في حين أن الوجه يتجاوز بُعد المادي نحو فضاء رمزي لا متناهٍ، حيث تتكشف هوية الذات في علاقتها بالآخر"^{١٢٩}

إن هذا التمييز الدقيق يؤسس لرؤية عميقة للوجه كظاهرة متعالية. وعليه، فإن ماريون لا يقصر نظريته على الوجه كمجموعة سمات فيزيائية، بل يتعداها ليبراه نافذة على عالم رمزي ثري بالدلالات. وبناءً على ذلك، يصبح الوجه ميداناً للتواصل والتفاعل الإنساني العميق، متجاوزاً حدود الجسد المادي.

ومن ثم، تقترب رؤية ماريون من تصور إيمانويل ليفيناس للوجه كـ"أثر" يتخطى عالم الظواهر نحو "اللامتناهي" الأخلاقي المطلق. حيث يؤكد ليفيناس في "الكلية واللامنهاية":

"الوجه يفتح البعد نفسه للعلو... إنه يقاوم الحياة والاستيعاب والقياس، لأنه يتعالى على كل تشيؤ وامتلاك"^{١٣٠}

في ضوء هذه الرؤية، نلاحظ تأكيد ليفيناس على الطبيعة المتعالية للوجه. فضلاً عن ذلك، فإن الوجه في نظره ليس مجرد موضوع للإدراك الحسي، بل هو تجلٍ للآخر في كليته وفرادته. علاوة على ذلك، فهو يقاوم كل محاولة لاختراله إلى مجرد شيء يمكن امتلاكه أو السيطرة عليه. وتبعاً لذلك، فإن الوجه يفتح أمامنا بعداً أخلاقياً عميقاً، حيث نواجه الآخر في غيريته المطلقة.

¹²⁹ Marion, Jean-Luc. (1998). Reduction and Givenness. p. 199.

¹³⁰ Levinas, E. (1969). Totality and Infinity: An Essay on Exteriority. (A. Lingis, Trans.). Pittsburgh: Duquesne University Press. p. 197.

بيد أن ماريون يتجاوز أفق ليفيناس من خلال ربط الوجه بالتجلي الديني والتمتعالي الإلهي. ففي "في الزيادة"، يطرح ماريون:

"الوجه البشري يحمل دائماً بصمة المطلق اللامرئي الذي يتخطى كل التجليات المرئية. إنه يتيح للآخر أن يطالعنا، لا كموضوع أمامنا، بل كأيقونة للتعالي تخترق آفاق إدراكنا".^{١٣١}

يضيف ماريون بعداً جديداً لفهم الوجه، إذ يربطه مباشرة بالتجربة الدينية والتمتعالي الإلهي. وبالتالي، فإن الوجه في هذا المنظور ليس فقط تجلياً للآخر الإنساني، بل هو أيضاً "أيقونة" تحمل في طياتها إشارة إلى المطلق اللامرئي. ونتيجة لذلك، يفتح ماريون الباب لفهم العلاقة الأخلاقية مع الآخر كتجربة ذات بعد روحي وديني عميق.

إضافة إلى ذلك، فإن هذا "التجاوز" الأنطولوجي والديني للوجه لا ينفصل، في نظر ماريون، عن دلالاته الأخلاقية العميقة. ففي "العطاء"، يشرح:

"التعالي لا يقطن في فراغ، بل يتجسد في كل لقاء بين الأنا والغير، حيث يتكشف كل طرف لذاته من خلال نظرة الآخر ونداء وجهه".^{١٣٢}

يوضح ماريون كيفية ربط التجربة اليومية للقاء مع الآخر وفكرة التعالي. ومن هذا المنطلق، فإن التعالي في نظره ليس مفهوماً مجرداً أو بعيداً عن الواقع المعيش، بل هو حاضر في كل لحظة نواجه فيها وجه الآخر. وفي خضم هذه المواجهة، لا نكتشف فقط الآخر، بل نكتشف أيضاً ذاتنا بطريقة جديدة. وهكذا، فإن الذات والآخر يتشكلان معاً في هذا اللقاء المشحون بالمعنى والدلالة.

¹³¹ Marion, Jean-Luc. (2002). In Excess: p. 115.

¹³² Marion, Jean-Luc. Being Given: p. 267.

وانطلاقاً من هذا الفهم، يؤكد ماريون على أن كل وجه يتضمن "فائضاً من المعنى يطالب الذات بالخروج من أنانيتها"¹³³ فهو يرى أن كل وجه، بغض النظر عن هوية صاحبه أو وضعه الاجتماعي، يحمل في طياته دعوة أخلاقية عميقة. ومن ثم، فإن هذه الدعوة تتجاوز حدود الذات وتطالبها بالخروج من أنانيتها والانفتاح على الآخر في غيريته المطلقة. وتبعاً لذلك، يصبح الوجه مصدراً للمعنى الأخلاقي الذي لا يمكن اختزاله إلى مجرد قواعد أو معايير اجتماعية.

علاوة على ذلك، يرى ماريون أن الانفتاح الحقيقي على الوجه "يتطلب تعليق الأحكام المسبقة"¹³⁴ يشير هذا إلى التحول الجذري الذي يتطلبه الانفتاح الحقيقي على الآخر. وبناءً على ذلك، فإن ماريون يدعو إلى نوع من "الإيبوخيه" الفينومينولوجي، أي تعليق كل الافتراضات والأحكام المسبقة التي نحملها عن الآخر. ووضعها "بين قوسين" وعليه، فإن هذا التعليق ليس مجرد عملية معرفية، بل هو تحول وجودي عميق يتطلب التخلي عن وهم السيطرة والهيمنة على العالم والآخرين.

وفي هذا السياق، نجد صدى قوياً لفكر ليفيناس الذي اعتبر "أخلاق المسؤولية انقطاعاً عن الأنطولوجيا التقليدية"¹³⁵. فكلا الفيلسوفين يدعوان إلى تجاوز منطق الهوية والسيطرة الذي هيمن على الفلسفة الغربية، نحو أخلاق تقوم على الانفتاح الراديكالي على الآخر.

غير أن ماريون يذهب أبعد من ليفيناس بإضافته طابعاً دينياً متعالياً على المسؤولية تجاه الآخر. ففي "الله بدون الوجود"، يربط "بين أخلاقيات الوجه وفعل المحبة

¹³³ Ibid., p. 298.

¹³⁴ Marion, Jean-Luc: The Erotic Phenomenon. p. 103.

¹³⁵ Levinas, E. (1989). Ethics as First Philosophy. In S. Hand (Ed.), The Levinas Reader (pp. 75-87). Oxford: Basil Blackwell. p. 84.

المسيحية".^{١٣٦} يكشف هذا عن البعد اللاهوتي العميق في فكر ماريون. فهو يرى أن الالتزام الأخلاقي تجاه الآخر ليس مجرد واجب إنساني، بل هو تجلٍ لحب الله ذاته. ومن ثم، يربط ماريون بشكل وثيق بين الأخلاق والإيمان، معتبراً أن التضحية من أجل الآخر هي في جوهرها فعل ديني.

يستند هذا التصور جزئياً إلى مفهوم "وجه يسوع المسيح" في اللاهوت المسيحي، كما نجده عند بافيل فلورنسكي* (1882-1937). الذي يقول "في وجه المسيح نرى الصورة الكاملة للإنسانية المتجددة، وفي كل وجه بشري نلمح انعكاساً لهذا الكمال الإلهي"^{١٣٧} فالمسيح، في التقليد المسيحي، هو التجسد الكامل للحب الإلهي، وبالتالي فإن كل وجه بشري يمكن أن يكون تذكيراً بهذا الحب وتجلياً له.

بيد أن هذا الربط بين الأخلاقي والديني يثير تساؤلات جوهرية:

هل يمكن التأسيس لأخلاقيات الغيرية دون الاستناد إلى مرجعية دينية محددة؟

وكيف يمكن الحديث عن كينونة الآخر "المطلقة" و"المتعالية" ما دامت لا تُختبر

إلا من خلال التجربة الذاتية للمواجهة؟

¹³⁶ Marion, Jean-Luc. God Without Being: p. 47.

* فيلسوفاً وعالم رياضيات وفيزيائياً ولاهوتياً روسياً أرثوذكسياً. اشتهر بعمله "عمود الحق وأساسه" الذي يجمع بين الفلسفة واللاهوت والعلم. كان له تأثير كبير على الفكر الديني والفلسفي الروسي في القرن العشرين، وقد استشهد في عام ١٩٣٧ خلال حملات القمع الستالينية.

¹³⁷ Florensky, P. The Pillar and Ground of the Truth: An Essay in Orthodox Theodicy in Twelve Letters. (B. Jakim, Trans.). Princeton, NJ: Princeton University Press. 1997, p.124 (Original work published 1914)

لا يدعي ماريون تقديم أجوبة حاسمة، لكنه يسعى لتأسيس فهم فينومينولوجي للوجه خارج الأطر المفاهيمية المعيارية، وعليه، فهو يحاول التفكير في معنى الوجه انطلاقاً من حدث "اللقاء" ذاته بوصفه حدثاً متعالياً. ونتيجة لذلك، فإنه يفتح الباب لفهم جديد للعلاقة بين الذاتية والغيرية، فهم يتجاوز الثنائيات التقليدية بين الذات والموضوع، وبين المحايث والمتعالي.

وفي هذا الإطار، تكتسب "الصلاة" دلالة مركزية في فهم ماريون للعلاقة الأخلاقية بالغير. يقول ماريون: "الصلاة لا تعني التحدث إلى الله، بل السماح لله بالتحدث إلينا... إنها تعني الانفتاح على الآخر المطلق، وبالتالي على كل آخر"¹³⁸. فالصلاة، في نظره، ليست مجرد ممارسة دينية منفصلة عن الحياة اليومية، بل هي الأساس الذي يقوم عليه اللقاء الحقيقي مع الآخر. إنها تمثل نوعاً من الانفتاح الراديكالي على المتعالي، وهنا يتفق ماريون مع النهج النقدي لكانط في محاولته تأسيس "ميتافيزيقا الأخلاق" على أسس عقلية مجردة. بيد أن ماريون يتجاوز الشكلائية الكانطية الصارمة، إذ يربط الالتزام الأخلاقي بتجربة إيمانية حية تستجيب لتجلي المطلق في الخبرة الدينية.

ويذهب ماريون أبعد من ذلك، حيث يعتبر تجلي الله ومحبته شرطاً وجودياً أساسياً لكل لقاء أخلاقي حقيقي بين الذات والآخر، فالوجه لا يظهر كموضوع، بل كأيقونة - أي كظاهرة تتجاوز نفسها نحو المتعالي. في مواجهة الوجه، نجد أنفسنا أمام مطلب أخلاقي لا يمكن اختزاله إلى مجرد واجب عقلي. إنه نداء المطلق الذي يتجلى في الآخر، داعياً إيانا إلى استجابة تتجاوز حدود الذات نحو عطاء لا متناهٍ.¹³⁹ وبهذا، ينقلب

¹³⁸ Marion, Jean-Luc. *Givenness and Revelation*: p. 89.

¹³⁹ Marion, Jean-Luc. *Being Given*: p. 323.

المنظور التقليدي؛ فبدلاً من أخلاق تقود إلى الإيمان، يطرح ماريون إيماناً يؤسس لأخلاق أصيلة، منفتحة على فيض الخير اللامتناهي.

إن دعوة ماريون لأخلاق الوجه، كتجسيد للتعالي الديني، تكتسب أهمية فلسفية بالغة. فهي تفتح آفاقاً جديدة لإعادة النظر في العلاقة بين الذات والآخر، متجاوزة الأطر النفسية والصراعية السائدة. كما أنها تطرح تحدياً عميقاً لتخطي حدود الأنانية نحو منطق أسمى للعطاء والتلقي المتبادل، وبهذا، تقدم فلسفة ماريون رؤية ثرية وامتداداً للأخلاق في عصرنا الراهن.

المطلب الثالث: حدود الفينومينولوجيا وإمكانات التفكير الديني عند ماريون

بعد استعراضنا لتحليلات ماريون حول الأيقونة والوجه كتجليين متميزين للمقدس في فينومينولوجيا الدين، يتعين علينا الآن التساؤل عن حدود هذه المقاربة ذاتها، والتحديات التي تطرحها على مشروع التأسيس الفلسفي للإيمان.

فهل يمكن للتحليل الفينومينولوجي، بالفعل، أن يستوعب المعنى الكلي للظاهرة الدينية دون الانزلاق في تناقضات منهجية أو مغالطات منطقية؟ وإلى أي مدى يشكل مسعى ماريون تجاوزاً حقيقياً للثنائيات الكلاسيكية بين الإيمان والعقل، أم أنه يعيد إنتاجها ولو بمصطلحات جديدة؟

في الواقع، كما يعترف ماريون نفسه في كتابه "الله"، "ثمة مفارقة جوهرية تكتنف مقاربتة للتجلي الديني، وهي صعوبة الحديث عن المطلق اللامتناهي في إطار تحليل ظاهراتي موضوعي، دون تحويله إلى مجرد 'موضوع' أو 'معطى' ككل المعطيات الأخرى". فالله، بحسب التعريف، هو من يتجاوز كل تعريف، ومن ثم فإن كل محاولة

لإخضاعه لشروط التناول الفينومينولوجي تتطوي بالضرورة على شكل من أشكال الاختزال والتشبيء^{١٤٠}

وهو ما دفع دومينيك جانيكو في كتابه "المنعطف اللاهوتي للفينومينولوجيا الفرنسية"، للتشكيك في شرعية مشروع ماريون برمته، باعتباره يمثل "تهجيناً غير مقبول بين الخطاب الفلسفي والخطاب اللاهوتي، ويقوض بالتالي أسس الفينومينولوجيا كمنهج وصفي صارم محايد".^{١٤١}

فكيف يمكن للمرء أن يتحدث عن "تشعب الظاهرة الدينية" و"عطائها المطلق"، دون أن يسقط عليها مسبقاً تصورات إيمانية وميتافيزيقية؟

أليس في ذلك تناقض صريح مع مبدأ "التعليق الفينومينولوجي" الذي يميز المنهج الظاهراتي منذ هوسرل؟

يسعى ماريون لمواجهة هذا التحدي عبر إعادة تعريف شروط الخطاب الفينومينولوجي ذاته. ففي نظره، المشكلة لا تكمن في التطرق للبعد الديني في حد ذاته، بل في محاولة إخضاعه للأطر المفاهيمية والأنطولوجية التقليدية التي تختزل الظاهرة في "الموضوع" وتحصر المعنى في "التأسيس الذاتي". لذا يقترح تطوير فهم أكثر جذرية للظاهراتية، ينطلق لا من الوعي المتعالي وأفعاله القصدية، بل من "العطاء المحض" الذي يسبق كل تموضع للذات ويتيح لها أصلاً إمكان التلقي والاستقبال^{١٤٢}.

¹⁴⁰ Marion, Jean-Luc, God Without Being: p. 53.

¹⁴¹ Dominique Janicaud, "The Theological Turn of French Phenomenology," in Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate (New York: Fordham University Press, 2000), p. 26.

¹⁴² Marion, Jean-Luc, Being Given: p. 249.

وبهذا المعنى، كما يشرح ، لا يعود التعارض قائماً بين الفينومينولوجيا والإيمان، طالما تخلت الأولى عن سعيها لاحتواء الثاني ضمن حدود العقل المحض. فالمقاربة الفينومينولوجية الحقّة للدين، من

وجهة نظره، هي تلك التي تتخذ من "فائض المعطى" منطلقاً لها، وتتيح للبعد المتعالي أن يتجلى وينكشف دون أن تدعي استفادته أو تطويقه: "المطلوب هو أن تتعلم الفينومينولوجيا كيف تحترم تعالي الظاهرة الدينية، بنفس القدر الذي تصفها فيه. أي أن ترصد 'فيضها' المتجدد دون محاولة تقنيه، وأن تستقبل 'عطاءها' المطلق دون ادعاء امتلاكه" ^{١٤٣}

وهذا بالضبط ما حاول ماريون تطبيقه، كما رأينا، في استكشافه لتجليات الأيقونة والوجه. فقد سعى لمقاربة كليهما لا كموضوعين للإدراك أو التمثل، بل كـ"أحداث" متعالية للمعنى تخترق آفاق توقعنا وتدعونا لتلقي ما يتجاوزنا. وهو بذلك يؤسس، كما يرى، لعلاقة غير تملكية مع المقدس، تقوم على الإصغاء لـ"ندائه" الصامت وعلى الشهادة لـ"عطاءه" المتدفق، دون محاولة لاستنفاد سره أو الإمساك النهائي بكنهه" ^{١٤٤}

لكن السؤال الذي يثور هنا: أليست هذه "العلاقة التلقوية" بدورها تقتض بالضرورة موقفاً إيمانياً مسبقاً؟ وهل يمكن حقاً الحديث عن "انفتاح" الذات على المطلق، بمعزل عن خلفية دينية أو لاهوتية معينة؟ بتعبير آخر: أليس الإيمان شرطاً لكل تجربة للتجلي الديني، وليس فقط نتيجة لها؟ وهل تكفي الإشارة إلى الطابع "الاستثنائي" و"الفائض" لبعض الظواهر لتبرير والنقاش" ^{١٤٥}

¹⁴³ Ibid., p. 18.

¹⁴⁴ Marion, Jean-Luc, "The Saturated Phenomenon," p. 212.

¹⁴⁵ John D. Caputo & Michael J. Scanlon (eds.), God, The Gift, and Postmodernism (Bloomington: Indiana University Press, 1999), p. 7.

في هذا الصدد، لا بد من العودة إلى جذور الفينومينولوجيا عند هوسرل ذاته، والتساؤل فيما إذا كان تصويره للمنهج الظاهراتي يتيح فعلاً هذا الانفتاح اللامشروط على المتعالي الذي يقول به ماريون. صحيح أن هوسرل، خاصة في كتاباته المتأخرة، أولى اهتماماً متزايداً لمسألة "اللامتناهي" وتجاوزه الدائم للوعي المتناهي، لكنه ظل مع ذلك متمسكاً بالطابع "المحايت" للمعنى وبارتهانه الكلي لشروط الذات الترنسندنتالية. وهو ما يتناقض، جذرياً، مع نظرية ماريون في "العطاء المحض" و"التشبع الحدسي" كمصدر مستقل وسابق لكل دلالة " ١٤٦

كذلك، وعلى صعيد مغاير، يحق لنا أن نتساءل عن مدى انسجام رؤية ماريون مع الحدود التي رسمها كانط، في "نقد العقل الخالص"، لكل معرفة ممكنة. فإذا كان الأخير قد شدد على استحالة تجاوز مجال الظواهر صوب "الشيء في ذاته"، فكيف يتسنى لنا إذاً الكلام عن "تجلٍ حقيقي للمطلق في نطاق الخبرة؟ أليس "تعالي" الله، بحكم تعريفه، ما يحول دون إدراكه من قبل الملكات المحدودة للذهن البشري؟

ثم أليس من شأن القول بمعرفة كينونته "الفائقة للطبيعة"، كما لدى ماريون، أن يقودنا إلى المغالطة الطبيعية " ١٤٧ التي حذر منها كانط؟

¹⁴⁶ Dan Zahavi, *Husserl's Phenomenology* (Stanford: Stanford University Press, 2003), pp. 71-73.

^{١٤٧} يحذر كانط من الانتقال غير المبرر من المفاهيم المنطقية إلى الادعاءات حول الواقع، وهو ما يرتبط بشكل وثيق بفكرة المغالطة الطبيعية. في سياق نقاشنا، يمكن تطبيق هذا التحذير على محاولات استنتاج حقائق عن الله أو طبيعته المتعالية من مجرد مفاهيمنا أو خبراتنا الحسية.

والتي تؤكد أن " الضرورة غير المشروطة للحكم لا تشكل الضرورة المطلقة للشيء. نحن لسنا مخولين للانتقال من الضرورة المنطقية لهذا المفهوم إلى الضرورة الواقعية للأشياء.^{١٤٨}

إزاء المعضلات لا يدعي ماريون حلاً نهائياً ، لكنه يسعى لإعادة طرحها ضمن أفق تساؤلي جديد. ففي كتابه "الله بدون الوجود"، يؤكد أننا "لكي نفهم إمكانية الحديث عن الله دون وقوع في فخ الأنطولوجيا أو مأزق التعالي السلبي المطلق، يتعين علينا تعلم لغة مغايرة، لا تخضع لحدود الكينونة والماهية، بل " تنفتح على فيض المعنى الحر اللامشروط الذي يتقدم على "العطاء" و"المحبة" المتعالية التي لا تنتظر مقابلاً^{١٤٩}

بمعنى آخر، إن ماريون لا يسعى للبرهنة على وجود الله بالمعنى الكلاسيكي، ولا حتى لتحديد "ماهيته" وفق مقولات الفكر التمثلي، بل يكتفي بالإشارة إلى آثار "عطائه" المجاني في صلب الوجود والمعنى، وبدعوتنا للانخراط الحر في حركة هذا العطاء ذاتها. وهنا يكمن، في اعتقاده، السبيل الوحيد للتوفيق بين متطلبات العقل النقدي ومقتضيات الموقف الإيماني: أي في التزام الحذر المنهجي إزاء كل "تأليه" للعقل أو "عقلنة" القداسة، مع البقاء منفتحين، في الوقت ذاته، على إمكانية تلقي المطلق كـ"حدث" يتجاوز إمكاناتنا دون أن يلغي حريتنا في الاستجابة له " ^{١٥٠}

وبناءً على هذا التصور، تغدو مهمة الفينومينولوجيا في التفكير الديني، في نهاية المطاف، ليس تقديم "علم يقين" حول الإله أو حول تجلياته، بل بالأحرى "تعليق كل يقين"

¹⁴⁸ Immanuel Kant, Critique of Pure Reason, trans. Norman Kemp Smith (London: Macmillan, 1929), p. 501.

¹⁴⁹ Marion, Jean-Luc, The Erotic Phenomenon, p. 73.

¹⁵⁰ Marion, Jean-Luc, Reduction and Givenness: p. 197.

لصالح مغامرة البحث الحية عن آثاره المشبعة في مختلف مناحي الخبرة والوجود. وهي مغامرة معرفية ووجودية عميقة، لا تخلو من

المخاطر والصعاب، لكنها حتمية في نظر ماريون لتجديد علاقتنا بالبعد القدسي والروحي، خارج الأطر الدوجمائية الجامدة والتصورات السلطوية المغلقة " ١٥١

لعلنا نلتمس هنا روح الحوار الكانطية، التي تدعو لشجاعة إعمال العقل النقدي دون التضحية بالأفق الأخلاقي والميتافيزيقي للإنسان، ما يلتقي إلى حد بعيد مع رؤية ماريون . فكما يقول كانط مقولته الشهيرة: "كان عليّ إذاً أن ألغي العلم لأفسح في المجال: "كان عليّ إذاً أن ألغي العلم لأفسح المجال للإيمان" ١٥٢ . وهي دعوة يمكن سحبها أيضاً على الفينومينولوجيا الدينية، كما طورها ماريون، والتي لا تسعى لـ"إثبات الإيمان بقدر ما ترمي إلى إتاحة شروط استقباله وتفتح الذات عليه.

صحيح أن هذه الدعوة لا تخلو من مفارقات وتوترات، كما أسلفنا، لكنها تظل مع ذلك ملحة وضرورية في سياق حضاري يشهد تصاعد النزعات الأصولية والعلموية المتشددة على حد سواء. ففي مواجهة هذين الخطرين المتلازمين، يقدم لنا ماريون طريقاً ثالثة، ترفض الاختزالات المتبادلة بين العقل والنقل، وتفتح على تشابكهما العميق في صلب التجربة الإنسانية الحية. لا باعتبارهما حقيقتين متوازيتين فحسب، بل كتحديين متداخلين يغذي أحدهما الآخر ويدفعه للتجاوز الدائم لذاته.

¹⁵¹ Marion, Jean-Luc, *Negative Certainties*: p. 173.

¹⁵² Immanuel Kant, *Critique of Pure Reason*, p. 29.

الخاتمة

في ختام هذا البحث العميق حول فينومينولوجيا الدين عند جان-لوك ماريون، نجد أنفسنا أمام مشروع فلسفي طموح يعيد تأسيس العلاقة بين الفكر والإيمان على أسس جديدة. إن مساهمة ماريون في هذا المجال تتجاوز مجرد الإضافة إلى المكتبة الفلسفية المعاصرة، لتمثل إعادة صياغة جذرية للأسئلة الأساسية حول الوجود والمعرفة والتجربة الدينية.

إن مفهوم "العطاء المحض في فينومينولوجيا الدين عند مارية يشكل نقطة ارتكاز لتجاوز الثنائيات الكلاسيكية التي هيمنت على الفكر الغربي لقرون. فبدلاً من الانطلاق من الذات أو الموضوع، من الوجود أو الماهية، يقدم ماريون منظوراً يرى في "العطاء" و"التجلي" الأساس الأولي لكل خبرة وكل معرفة. هذا التحول الاستمولوجي والأنطولوجي العميق يفتح آفاقاً غير مسبوقة للتفكير في المطلق وعلاقته بالمتناهي، متجاوزاً بذلك حدود الميتافيزيقا التقليدية ومحدودية المقاربات العقلانية الصرفة للظاهرة الدينية.

وبالمثل نلاحظ أن مفهوم "الظاهرة المشبعة"، الذي يعتبره ماريون نموذجاً أعلى للعطاء، يمثل محاولة مثيرة للاهتمام لتجاوز حدود الإدراك والفهم التقليديين. فكرة ظاهرة تتجاوز قدرة الوعي على الاستيعاب وتخرق كل الأطر المفاهيمية المسبقة تفتح إمكانيات جديدة للتفكير في التجربة الدينية. هذا المفهوم يقدم إطاراً نظرياً للتعامل مع تلك الخبرات التي تبدو متعالية على الفهم البشري المحدود، مما يسمح بمقاربة فلسفية أكثر انفتاحاً على الأبعاد الروحية والوجودية للتجربة الإنسانية.

أما مفهوم "الوجه" كتجلٍ للمتعالى يمثل إضافة قيمة إلى النقاش الفلسفي حول الأخلاق والعلاقة بين الذات والآخر. مستلهماً أفكار ليفيناس، يطور ماريون فهماً للوجه

كظاهرة تتجاوز البعد المادي لتصبح تجلياً للمطلق في العلاقات الإنسانية. هذا الربط بين الأخلاقي والديني يفتح آفاقاً جديدة للتفكير في أسس الأخلاق ومعنى المسؤولية تجاه الآخر. إنه يقدم رؤية للأخلاق تتجاوز المنظور النفعي أو الواجب المجرد، لتأسيسها على مفهوم العطاء والاستجابة للآخر كتجلٍ للمتعالى.

إن أحد أهم إنجازات ماريون هو محاولته لتجاوز الثنائية التقليدية بين الإيمان والعقل. من خلال مفهوم العطاء، يقدم إطاراً فكرياً يسمح بالتفكير في المتعالى دون التحلي عن الصرامة الفلسفية. هذا المسعى يمثل محاولة جادة لتجسير الهوة التي طالما فصلت بين الفلسفة واللاهوت، مقترحاً نوعاً من "الفينومينولوجيا اللاهوتية" التي تجمع بين الدقة المنهجية والانفتاح على التجربة الدينية.

في هذا السياق، يمكن النظر إلى مشروع ماريون كإعادة تعريف للعلاقة بين الفلسفة والدين في عصر ما بعد الميتافيزيقا. إنه يتجاوز النقد العلماني للدين دون العودة إلى اللاهوت التقليدي، مقترحاً بدلاً من ذلك مقاربة تحافظ على الاستقلال الفلسفي مع الانفتاح على الأبعاد المتعالية للتجربة الإنسانية.

رغم التحديات المنهجية والمفاهيمية التي يواجهها مشروع ماريون، لا يمكن إنكار أهمية وأصالة مساهمته في الفكر الفلسفي المعاصر. فهو يقدم رؤية جديدة ومثيرة للتفكير في العلاقة بين الإنسان والمتعالى، متجاوزاً الأطر التقليدية للميتافيزيقا والمعرفة. إن مفاهيمه عن العطاء والظاهرة المشبعة تفتح آفاقاً جديدة للتفكير في الخبرة الدينية والوجود الإنساني.

إن التوترات والمفارقات التي تكتنف مشروع ماريون لا تقلل من قيمته، بل تعكس عمق الإشكاليات التي يتناولها. فهي تشير إلى التحديات الأساسية التي تواجه أي محاولة

للتفكير في المطلق والمتعالى ضمن إطار الفكر البشري المحدود. في هذا السياق، يمكن النظر إلى هذه التوترات كدعوة للتواضع الفكري والانفتاح المستمر على ما هو غير معروف وغير قابل للإدراك الكامل.

فينومينولوجيا الدين عند ماريون تمثل دعوة مستمرة للتفكير والتأمل. إنها لا تقدم إجابات نهائية، بل تفتح مجالات جديدة للبحث والتأمل في أعمق الأسئلة التي تواجه الوجود الإنساني. في عصر يشهد تحديات متزايدة للفكر الديني والفلسفي على حد سواء، يقدم ماريون منظوراً يحافظ على إمكانية التفكير في المتعالى دون التخلي عن النقد العقلاني.

القيمة الحقيقية لمشروع ماريون تكمن في قدرته على فتح آفاق غير مطروقة للتفكير الفلسفي واللاهوتي. فحتى لو لم نتفق مع كل جوانب نظريته، فإنها تظل محفزاً قوياً لإعادة النظر في افتراضاتنا الأساسية حول الوجود والمعرفة والإيمان. إنها تدعونا إلى تجاوز الحدود التقليدية للفكر الفلسفي والتجربة الدينية، وتفتح أمامنا إمكانيات جديدة لفهم أنفسنا وعلاقتنا بالعالم والمتعالى.

في الختام، يمكن القول إن فينومينولوجيا الدين عند جان-لوك ماريون تمثل إسهاماً فلسفياً عميقاً ومبتكراً في مجال الفكر الديني والفلسفي المعاصر. إنها تجمع بين العمق الفلسفي والحساسية الدينية، مقدمة رؤية متكاملة تسعى لفهم الظاهرة الدينية في غناها وتعقيدها. من خلال مفاهيم مثل العطاء المحض والظاهرة المشبعة، يفتح ماريون أفقاً جديداً للتفكير في العلاقة بين المتناهي واللامتناهي، بين الإنسان والمتعالى.

هذا المشروع الفلسفي لا يقتصر على إعادة تفسير التجربة الدينية فحسب، بل يمتد ليشمل إعادة النظر في أسس الفلسفة ذاتها. فمن خلال نقده للميتافيزيقا التقليدية

وتجاوزه لثنائية الذات والموضوع، يقدم ماريون نموذجاً جديداً للتفكير الفلسفي يتسم بالانفتاح والمرونة. هذا النموذج يسمح بالتعامل مع تلك الجوانب من الخبرة الإنسانية التي طالما استعصت على التحليل الفلسفي التقليدي.

إن أهمية عمل ماريون تتجلى بشكل خاص في قدرته على الجمع بين التراث الفلسفي الغربي والتأملات اللاهوتية العميقة. فهو يستفيد من الإرث الفينومينولوجي لهوسرل وهايدغر، ويطوره في اتجاهات جديدة تسمح بفهم أعمق للبعد الديني في الحياة الإنسانية. في الوقت نفسه، يستلهم ماريون من التراث اللاهوتي المسيحي، خاصة في تأملاته حول مفهوم المحبة والعطاء، ليقدم رؤية فلسفية تتجاوز حدود العقلانية المجردة. هذا الجمع بين الفلسفي واللاهوتي يفتح الباب أمام حوار أعمق بين الفكر الديني والفلسفة المعاصرة. فبدلاً من رؤية الدين والفلسفة كمجالين منفصلين أو متعارضين، يقترح ماريون إمكانية تفاعل خصب بينهما، يثري كلا المجالين ويفتح آفاقاً جديدة للفهم والتأويل.

في سياق الفكر الفلسفي المعاصر، يمكن النظر إلى عمل ماريون كمحاولة لتجاوز الانقسامات التقليدية بين الفلسفة القارية والتحليلية، وبين الفكر العلماني والديني. فهو يقدم نموذجاً للتفكير الفلسفي يجمع بين الدقة المنهجية والعمق الوجودي، بين التحليل النقدي والانفتاح على التجربة الروحية.

إن فينومينولوجيا الدين عند ماريون تمثل أيضاً استجابة فلسفية عميقة للتحديات التي يواجهها الفكر الديني في العصر الحديث. ففي مواجهة النقد العلمي والفلسفي للدين، يقدم ماريون رؤية تحافظ على إمكانية التجربة الدينية الأصيلة دون التخلي عن المتطلبات

النقدية للفكر الفلسفي. هذه المقاربة تفتح الباب أمام فهم جديد للإيمان، لا كنعيقض للعقل، بل كشكل من أشكال الانفتاح على ما يتجاوز حدود الفهم البشري.

في النهاية، يبقى مشروع ماريون الفلسفي دعوة مفتوحة للتفكير والتأمل في أعماق أسرار الوجود الإنساني. إنه يذكرنا بأن الفلسفة، في جوهرها، ليست مجرد نظام فكري مغلق، بل هي مغامرة مستمرة للفهم والاكتشاف. وفي عالم يتسم بالتعقيد والتغير المستمر، تقدم فينومينولوجيا الدين عند ماريون أدوات فكرية قيمة لمواجهة التحديات الوجودية والروحية التي تواجه الإنسان المعاصر.

هكذا، يمكن اعتبار عمل ماريون إسهاماً أساسياً في تجديد الفكر الفلسفي والديني في القرن الحادي والعشرين. إنه يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتأمل، ويدعونا إلى إعادة النظر في فهمنا للذات والعالم والمتعالي. وفي هذا الانفتاح على الممكن وغير المتوقع، في هذه الدعوة المستمرة

أهم النتائج

بعد إعادة قراءة البحث، وخاصة أسئلة البحث والخاتمة، يمكن استخلاص النتائج التالية:

١. يقدم ماريون من خلال مفهوم "العطاء المحض" إطاراً فلسفياً جديداً يتجاوز الثنائيات الكلاسيكية في الفكر الغربي، مما يفتح آفاقاً جديدة لفهم العلاقة بين المتناهي واللامتناهي في التجربة الدينية.

٢. تعيد فينومينولوجيا الدين عند ماريون تشكيل فهمنا للعلاقة بين الفلسفة والدين، حيث تقدم نموذجاً للتفكير يجمع بين الصرامة الفلسفية والانفتاح على التجربة الدينية.

٣. يساهم مفهوم "الظاهرة المشبعة" في تحليل التجلي الديني بشكل يتجاوز حدود المعرفة البشرية التقليدية، مما يسمح بفهم أعمق للخبرات الدينية التي تبدو متعالية على الإدراك العادي.

٤. يعيد ماريون تفسير مفهوم "الأيقونة" في سياق فينومينولوجيا الدين، مما يغير فهمنا للعلاقة بين المرئي واللامرئي في التجربة الدينية، ويقدم رؤية جديدة لكيفية تجلي المقدس في العالم المادي.

٥. تقدم مقارنة ماريون إسهاماً مهماً في تجديد الحوار بين الفلسفة والدين في مواجهة تحديات العصر الحالي، حيث تفتح آفاقاً جديدة للتفكير في المقدس خارج الأطر التقليدية للميتافيزيقا.

٦. يوفر تحليل ماريون للوجه كتجلٍ للمتعالي أساساً فلسفياً جديداً للأخلاق، يربط بين البعد الأخلاقي والبعد الديني في العلاقات الإنسانية.

٧. تمثل فينومينولوجيا الدين عند ماريون محاولة جادة للتوفيق بين القول باللاتناهي المطلق للتجلي الديني وبين منهجية الوصف الظاهراتي الصارم، مما يفتح إمكانيات جديدة لفهم الظاهرة الدينية في إطار فلسفي معاصر.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

1. Marion, Jean-Luc. God Without Being: Hors-Texte. Translated by Thomas A.
2. "Metaphysics and Phenomenology: A Relief for Theology." Critical Inquiry 20/4() .
3. Reduction and Givenness: Investigations of Husserl, Heidegger, and Phenomenology. Translated by Thomas A. Carlson. Evanston: Northwestern University Press, 1998.
4. & Jacques Derrida. "On the Gift: A Discussion between Jacques Derrida and Jean-Luc Marion". In God, The Gift and Postmodernism, eds. John D. Caputo and Michael J. Scanlon. Bloomington: Indiana University Press .)1999.
5. "The Saturated Phenomenon." In Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate. New York: Fordham University Press,2000.
6. The Idol and Distance: Five Studies. Translated by Thomas A. Carlson. New York: Fordham University Press) .2001
7. Being Given: Toward a Phenomenology of Givenness. Translated by Jeffrey L. Kosky. Stanford: Stanford University Press) .2002
8. In Excess: Studies of Saturated Phenomena. Translated by Robyn Horner and Vincent Berraud. New York: Fordham University Press) .2002

9. Prolegomena to Charity. Translated by Stephen E. Lewis. New York: Fordham University Press 2002.
10. "The End of Metaphysics as a Possibility". In Religion after Metaphysics, ed. Mark A. Wrathall. Cambridge: Cambridge University Press) .2003
11. The Erotic Phenomenon. Translated by Stephen E. Lewis. Chicago: University of Chicago Press .)2007
12. Marion, Jean-Luc. The Visible and the Revealed. Translated by Christina M. Gschwandtner. New York: Fordham University Press) .2008
13. Negative Certainties. Translated by Stephen E. Lewis. Chicago: University of Chicago Press, 2015.
14. Givenness and Revelation. Translated by Stephen E. Lewis. Oxford: Oxford University Press) .2016
15. The Rigor of Things: Conversations with Dan Arbib. Translated by Christina M. Gschwandtner. New York: Fordham University Press) .2017

ثانيًا: المراجع

أ. المراجع العربية

١٦. ابن عربي، محيي الدين. الفتوحات المكية. تحقيق عثمان يحيى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. (١٩٨٥)
١٧. ابن عربي، محيي الدين. الفتوحات المكية. تحقيق أحمد شمس الدين. بيروت: دار صادر. (٢٠٠٤)

١٨. الأكويني، توما. الخلاصة اللاهوتية. ترجمة الخوري بولس عواد. بيروت: المطبعة الأدبية. (١٨٨٧)
١٩. السهروردي، شهاب الدين. رسائل فلسفية. تحقيق صائب عبد الحميد. القاهرة: دار الكاتب العربي. (١٩٧٠)
٢٠. الغزالي، أبو حامد. المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. تحقيق فضلة شحادة. بيروت: دار المشرق. (١٩٧١)
٢١. عبد الجبار، القاضي. المغني في أبواب التوحيد والعدل. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة. (١٩٦٥)

22. Benson, Bruce Ellis. Graven Ideologies: Nietzsche, Derrida & Marion on Modern Idolatry. Downers Grove, IL: InterVarsity Press. (2002)
23. Caputo, John D. & Scanlon, Michael J. (eds.). God, The Gift, and Postmodernism. Bloomington: Indiana University Press. (1999)
24. Derrida, Jacques. Writing and Difference. Translated by Alan Bass. Chicago: University of Chicago Press. (1978)
25. Florensky, P. The Pillar and Ground of the Truth: An Essay in Orthodox Theodicy in Twelve Letters. Translated by B. Jakim. Princeton, NJ: Princeton University Press. (1997)
26. Heidegger, Martin. Being and Time. Translated by John Macquarrie and Edward Robinson. New York: Harper & Row. (1962)
- 27..... "On the Essence of Truth." In Basic Writings, edited by David Farrell Krell. New York: Harper Collins. (1993)

- 28..... Contributions to Philosophy (Of the Event). Translated by Richard Rojcewicz and Daniela Vallega-Neu. Bloomington: Indiana University Press. (2012)
- 29.Husserl, Edmund. Cartesian Meditations: An Introduction to Phenomenology. Translated by Dorion Cairns. The Hague: Martinus Nijhoff. (1960)
- 30..... The Idea of Phenomenology. Translated by William P. Alston and George Nakhnikian. The Hague: Martinus Nijhoff. (1964)
- 31..... Ideas Pertaining to a Pure Phenomenology and to a Phenomenological Philosophy: First Book. Translated by F. Kersten. The Hague: Martinus Nijhoff. (1982)
- 32..... Logical Investigations, Volume 2. Translated by J. N. Findlay. London: Routledge. (2001)
- 33..... Ideas: General Introduction to Pure Phenomenology. Translated by W. R. Boyce Gibson. London: Routledge. (2012)
- 34.Janicaud, Dominique. Phenomenology and the "Theological Turn": The French Debate. New York: Fordham University Press. (2000)
- 35.Kant, Immanuel. Critique of Pure Reason. Translated by Norman Kemp Smith. London: Macmillan. (1929)
- 36.Levinas, Emmanuel. Totality and Infinity: An Essay on Exteriority. Translated by Alphonso Lingis. Pittsburgh: Duquesne University Press. (1969)
- 37.Mackinlay, Shane. Interpreting Excess: Jean-Luc Marion, Saturated Phenomena, and Hermeneutics. New York: Fordham University Press. (2010)
- 38.Nicholas of Cusa. On Learned Ignorance. Translated by Jasper Hopkins. Minneapolis: Arthur J. Banning Press. (1981)

-
39. Puntel, Lorenz B. *Being and God: A Systematic Approach in Confrontation with Martin Heidegger, Emmanuel Levinas, and Jean-Luc Marion*. Translated by Alan White. Evanston, IL: Northwestern University Press. (2011)
40. Saint Augustine. *Confessions*. Translated by Maria Boulding. New York: New City Press. (1997)
41. St. John of Damascus. "Exposition of the Orthodox Faith." Translated by S.D.F. Salmond. In *Nicene and Post-Nicene Fathers, Second Series, Vol. 9*, edited by Philip Schaff and Henry Wace. Buffalo, NY: Christian Literature Publishing Co. (1899)

Jean-Luc Marion's Phenomenology of Religion

Abstract:

This research examines the phenomenology of religion in Jean-Luc Marion's philosophy, exploring his key concepts such as pure givenness, saturated phenomenon, and icon. It analyzes how Marion transcends traditional metaphysics and re-establishes the relationship between philosophy and religion. The study also discusses Marion's contributions to understanding religious experience and the challenges facing his philosophical project, highlighting its significance in the context of contemporary philosophical and religious thought.

Keywords: Jean-Luc Marion, Phenomenology, Religion, Givenness, Saturated Phenomenon, Icon, Metaphysics